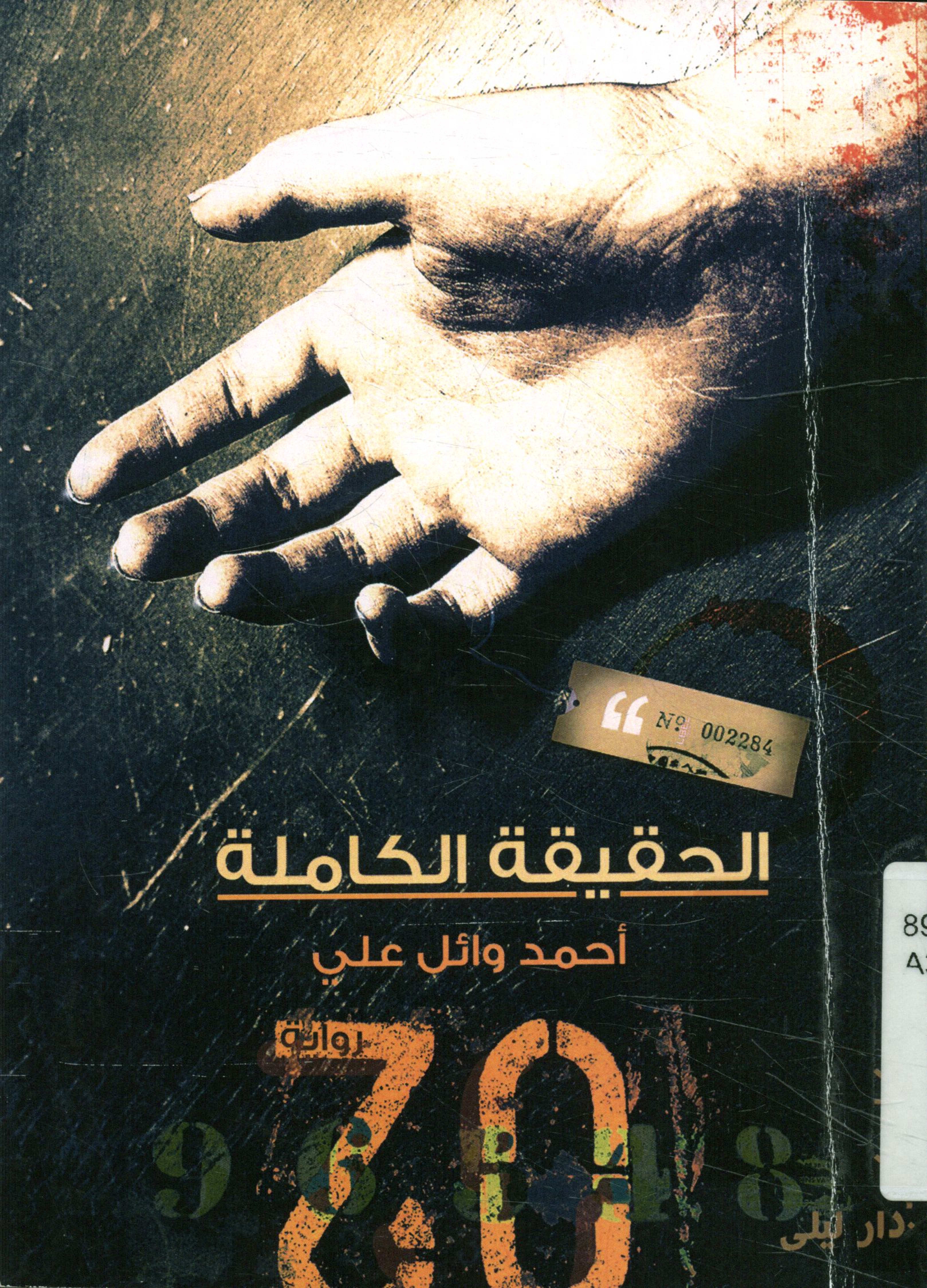

№ 002284
الحقيقة الكاملة
أحمد وائل علي
رواية
دار ليلى

أحمد وائل علي

# الحقيقة الكاملة

رواية

*الكتاب:*
**الحقيقة الكاملة**
*المؤلف:*
**أحمد وائل علي**
*رقم الإيداع:*
2012/ 8670
*الترقيم الدولي:*
978-977-5238-22-1
★★★
*الغلاف:*
**محمد محمود**
*الإخراج الفني:*
**حسام سليمان**
*التدقيق اللغوي:*
**محمد عبد الغفار**
★★★
*التوزيع:*
**عبد الله شلبي**
*الإشراف العام:*
**محمد سامي**
★★★

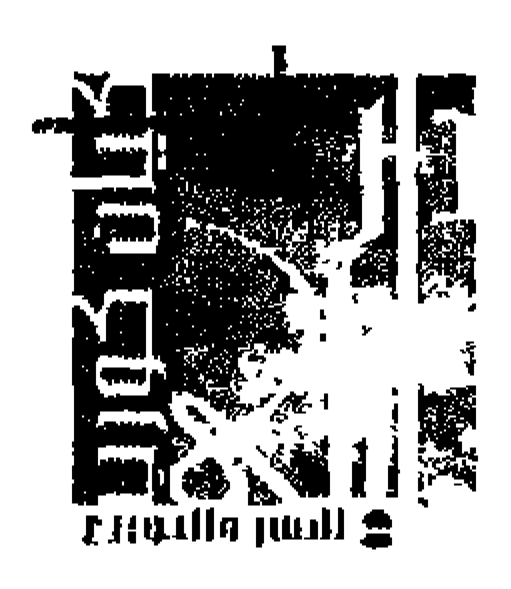


المهندسين-23 شارع السودان-تقاطع مصدق-الدور الرابع-مكتب 11
هاتف: 33370042 (02) (002) - 23886295 (012) (002)
البريد الإليكتروني: mail@darlila.com الموقع الرسمي: www.darlila.com

كيان كورب
للنشر والتوزيع والطباعة
دار ليلى

أحمد وائل علي

# الحقيقة الكاملة



نحن لا نشفى من ذاكرتنا.. ولهذا نحن نكتب، ولهذا نحن نرسم، ولهذا يموت بعضنا أيضًا.

*أحلام مستغانمي*

## إهداء

إليكِ.. إلى أن يشاء الله فنجتمع سويًّا..

## رسالة إلى الناشر

صديقي العزيز، أرسل إليك هذا الملف بما يحتويه من أوراق لعلك تتمكن من إخراجها للنور بعد أن ظلت حبيسة الظلمات نحو 30 عاما كاملة، من دون أن يطلع عليها أحد سواي بعد أن اكتشفتها منذ عدة أيام في منزلنا القديم.

تدور هذه الأحداث في الإسماعيلية منذ ما يزيد على 30 عاما، تحديدا في خريف عام 2011، بُعيد قيام ثورة الخامس والعشرين من يناير. كاتب هذه الكلمات هو زوج سابق لوالدتي. إلا أن روايته تلك للأحداث تحمل أمورا لم أكن أعلمها، وأمورا أخرى لا يعلمها أي شخص حي سواي.

بعد مرور ما يزيد على 30 عاما، تظهر الحقيقة الكاملة وإن كانت ظلت طوال تلك المدة مختبئة بأحد الجدران.

سيدي العزيز.. لقد ظلت جدران منزلنا تحمل الحقيقة حتى باحت بها منذ أيام.

كان هذا الملف مخبأً بعناية، وقد اختار كاتب الكلمات أن يخبئ كلماته تلك أطول فترة ممكنة؛ حيث إن الظروف ما كانت لتسمح بنشر روايته في حياته..

بين يديك يا سيدي حل اللغز..

*الإسماعيلية – أبريل 2043*

# الفصل الأول

إنه خريف 2011، ذلك العام المشئوم المليء بالكساد.. وأخيرا تحرك المصريون من سباتهم العميق. كعادتي كل صباح أتناول الفطور مع الصحف. منذ أن بدأ ذلك العام والصحف تحمل لنا الجديد كل يوم، ابتعاد ذلك واتهام هذا ومقتل فلان وحبس علان.. أخيرا رحل ذلك الكابوس القاتم على أنفاسنا.

هذا اليوم وعلى عكس العادة، الصحف لا تحمل الجديد، وربما تحمل إعلانا عن استثمارات مالية بأعلى فائدة، ترى لِمَ يغامر هؤلاء بهذه الفوائد غير المحسوبة ونحن لا نعلم أي الاتجاهات نسلك؟

«هل تود المزيد من الشاي يا عزيزي؟».. كان ذلك صوت زوجتي إيناس وهي تقطع عليَّ حبل أفكاري.

ابتسامتها المشرقة تجاهي تحمل المزيد من التفاؤل، نظرت إليها متأملا لبرهة ثم قلت: «لا يا حبيبيتي، شكرا».

– ترى في ماذا تفكر؟

– لا شيء، كنت أتأمل ذلك الإعلان من أحد البنوك عن شهادات ذات ربح سنوي عال.

– بالأمس، تحدث الشيخ حسنين عن تلك الشهادات. قال إنها ربا. وإن الربا ما هو إلا حرب مع الله ورسوله.

ألقت بمعلومتها تلك ثم تابعت شرب كوب الشاي الذي بيدها. للأسف بالنسبة لإيناس وكثير من أمثالها من السيدات الشابات العاملات بالحكومة يعتبر الشيخ حسنين مرجعا فكريا وفقيها لا يستهان به.

أما بالنسبة لي فالشيخ حسنين ليس سوى دجال يختبئ بلحيته؛ فهو لم يدرس الدين في أحد المعاهد، ما علمته عن الرجل أنه استقى علمه من الكتب المتناثرة على الرصيف كغيره من مدعي التدين والحفاظ على الدين ومبادئه. لكنه خرج بعد الثورة ليصبح إماما لأحد المساجد القريبة من البيت، ثم كان عضوا مؤسسا في أحد الأحزاب الدينية التي أُطلقت في الآونة الأخيرة. أين كان هؤلاء قبل الثورة؟ من أطلقهم علينا؟

وبما أن الشيخ حسنين قد أفتى بأن أمرا كالشهادات البنكية أمر حرام شرعا ولا يصح، فإن فكرة شراء بعض السندات المالية كانت ستلاقَى بمعارضة شديدة من قبل إيناس. وحيث إنني لا أمتلك وقتا هذا الصباح

لمناقشة فتاوى الشيخ حسنين فقد آثرت الصمت، وإكمال كوب الشاي الصباحي مع متابعة الصحيفة دون أن أنبس ببنت شفة حتى فرغت.

قلت لها: «قد لا أعود على الغداء. لا تنتظريني حبيبتي».

- حسنا، لا مشكلة.. هل لديك موعد على الغداء؟

- نعم لديَّ دعوة للغداء مع أنور مجدي.

كان أنور مجدي مهندسا مدنيا وجارنا.. هو صديقي الوحيد من زمرة جيراننا المختلفين.

- حسنا، سأذهب للغداء مع أمي.. هل من مشكلة في ذلك؟

- لا على الإطلاق، فقط أتمنى أن أجدك عند عودتي للبيت.

- لا تقلق، سأعود مبكرا.

ثم عدنا لصمتنا مرة أخرى، حتى سألتني فجأة: «هل تعرفت على جارنا الجديد؟».

- جارنا الجديد؟

- نعم، لقد وفد إلينا أمس الأول.

- أتقصدين ذلك الرجل الأصلع صاحب العوينات؟

- نعم هو.. هل تعرفه؟

– هو جار قديم لنا، لكنه رحل إلى القاهرة منذ أعوام طوال، أظنه فعل قبل زواجنا.

– بالتأكيد، أنا لم أره قبل ذلك، ترى ماذا يعمل؟

– على ما أتذكر، أظنه أستاذا بالجامعة، بكلية الحقوق.

– كلية الحقوق! لا توجد كلية حقوق هنا!!

– ما شأننا نحن؟ ربما أتى إلى هنا لغرض شخصي.

– آه، ربما.

صرخة الآه تلك لا تعني سوى أنها لن تهدأ حتى تعلم تاريخ الرجل منذ نعومة أظافره.

في الحقيقة أن إيناس – زوجتي الحبيبة – هي مثال واضح للسيدة المصرية الفضولية، التي لا تهدأ حتى معرفة تاريخ جيرانها من الدرجة العاشرة، وبما أن حظ الرجل العثر قد قاده ليسكن بجانبنا، فإيناس لن تهدأ حتى تعلم عنه ما لا يعلمه هو نفسه.

فهي تقريبا تعلم كل كبيرة وصغيرة عن جارنا عادل الذي يسكن في الطابق الأول.

لم تكن كذلك قبل زواجنا، لكنها صارت على حالها هذا بعد

الزواج. وأصبح ملحوظا بعدما علمنا أننا لن ننجب.

قال لنا الطبيب إن إيناس تحتاج إلى مرحلة طويلة من العمليات الجراحية، وقد لا تنجح.. ولأن زوجتي تعلم أن حالتنا المادية قد لا تسمح بعمل هذه العمليات الجراحية، فقد رفضت أن تجريها وأجلت حلم الأمومة لبعض الوقت. بعد عام أو أكثر من معرفتنا بهذا الأمر، لم يعد لإيناس من الدنيا سواي. أصبحت أنا زوجها وابنها وكل شيء لها.

قبلة صباحية، قبل أن تغادر لعملها، لديَّ بعض الوقت قبل أن أذهب للصيدلية. ترى من أين لشخص كالشيخ حسنين أن يعيش في هذا الكساد؟

***

عند مغادرتي المنزل قابلت جارنا الجديد، ابتسم إليَّ ابتسامة بشوشا وانسحب في هدوء، أتذكره عندما كان يسكن هنا قبل ذلك منذ أعوام. كما هو لم يتغير شكله، ربما شاب شعره أكثر من ذي قبل، أظنه في الخمسينات من العمر.. أوائل الخمسينات.. ترى ماذا كان اسمه؟!

***

في طريقي نحو الصيدلية كالعادة يستغرق الأمر ما لا يقل عن نصف ساعة. من شارع الثلاثيني حيث أقطن حتى شارع العشريني، حيث صيدليتي التي أمتلكها. من كان يصدق أن تصبح تلك البقعة النائية من

العالم بهذا الازدحام المثير للشفقة؟!

حسنا، لم أكتب عن نفسي أبدا منذ أن بدأت في التدوين.. أنا علاء عزت، صيدلاني، في الخامسة والثلاثين من العمر، أمتلك صيدلية كبيرة في شارع العشريني، أحد أنشط الشوارع في الإسماعيلية، أنا مثال صارخ لمن يعيشون حياة رتيبة مملة.

ما إن وصلت إلى الصيدلية حتى وجدت إلهام، مساعدتي الصباحية، صيدلانية صغيرة العمر تخرجت منذ عام أو عامين، لا أذكر بالتحديد.. أتت لي بعد الثورة تبحث عن عمل، ولأنها حسنة المظهر فقد وافقت عليها.

من يهتم في هذه المهنة بالخبرة؟ الجميع سواء.. في بلدنا الآن الجميع يمكنه أن يعمل مهنتنا هذه.

- صباح الخير يا دكتور.

- صباح النور يا إلهام، كيف حالك؟

- بخير، الحمد لله. وصلت لنا هذه الفواتير.

أمسكت بالفواتير لأقرأها، كالعادة لا تحمل الجديد أبدا. في الحقيقة حياتي لا يوجد بها أي جديد. فقط الشعور بالملل. لم أكن أعلم في

ذلك الوقت أنني بانتظار واحدة من أكثر المغامرات أهمية في حياتي.

صوت إلهام مرة أخرى: «دكتور»..

– نعم.

– كنت أود أن أسأل: هل يمكنني الحصول على إجازة؟

– ما الأمر؟

«لا شيء، ولكن يوسف – خطيبي – سيسافر لمدة شهر وأود أن أودعه غدا».

– حسنا، لا مشكلة.

كانت مشكلة إلهام الكبرى أنها كثيرة الحصول على إجازات.. كثيرا ما تطلب، وكثيرا ما أرفض أنا، أغلبها كان يتعلق بيوسف خطيبها، شاب أسمر نحيف، على حسب ما أتذكر كان يعمل صحافيا. كما أعلم أنه ناشط سياسي، كان له دور كبير في الثورة في الإسماعيلية.

هؤلاء الشباب حديثو العهد بالعمل لا يودون أن يعملون أبدا، فقط الحصول على رواتبهم هو ما يشغل بالهم. لم نكن كذلك في مقتبل العمر.. إنه جيل الثورة.

***

# الفصل الثاني

حين دقت الساعة الثالثة عصرا، همت إلهام بالانصراف. كان ذلك وقت الغداء، أما أنا فقد انتظرت عمر، مساعدي المسائي. كان يأتي ليتسلم العمل مني ثم أتوجه أنا للغداء، ثم أعود إليه في المساء للعمل. عمل رتيب، لا جديد فيه. تصحو مبكرا للذهاب إلى الصيدلية ثم تعود للغداء، ثم تعود أثناء المساء.. وهكذا تدور العجلة يوميا.

ما إن دخل عمر إلى الصيدلية، وبدأ في مزاولة عمله حتى هممت بالانصراف، عند وصولي للسيارة انتابني ذلك الشعور اللاإرادي بأنني قد نسيت شيئا ما: المفاتيح معي، حافظة النقود، علبة الحبوب، هاتفي النقال.. نعم لقد نسيت ذلك الهاتف الصغير. كنت قد نسيت أن أعود به اليوم بعد أن تركته في الصيدلية لعدة أيام منذ أن اشتريته.

عدت للصيدلية لأحضر هاتفي النقال الآخر ثم اتجهت بالسيارة

نحو المنزل. في الطريق استمعت للمذياع لأبدد الوقت في طريق العودة، هذه المدينة اللعين تزدحم بالناس يوما بعد يوم، وكأن كل أهلها ينزلون للشارع في وقت واحد.

كان المذيع في الراديو يعلن عن أن المجلس العسكري الحاكم قد حدد مواعيد الانتخابات البرلمانية. كان ذلك أمرا جيدا لنا.. أخيرا سننتخب، لم يعد المجلس العسكري محبوبا بين صفوف الشعب كما كان وقت تسلمه السلطة. بالتأكيد هو ليس منبوذا أو مكروها كما أصبح سلفه في أواخر حكمه، إلا أن الشعبية الطاغية التي اتسم بها المجلس الحاكم بدأت في التناقص رويدا رويدا.

لم يكن من الممكن أن أذهب إلى دعوة الغداء شاغر اليدين، عليَّ أن أذهب للسوق لأبتاع بعض الفاكهة، كان ذلك يعني المزيد من الوقت في تلك الشمس الحارة، والمزيد من الزحام.

في السوق لم يكن حديث الباعة عن شيء إلا غلاء الأسعار، تبا لهذه الثورة. لم يكن ذلك جديدا، لقد بدأت الناس في سب الثورة فعلا منذ عدة أشهر، وقد بدأ هؤلاء في الازدياد يوما بعد يوم. تلك الثورة التي لم تجلب لهم سوى المزيد من غلاء الأسعار التي انتفضوا أصلا من أجلها.

***

وأخيرا، وصلت للبيت. أصبحت رحلة الذهاب من الصيدلية وإليها أمرا مقرفا للغاية.. كان أنور مجدي يسكن معنا في نفس البيت المكون من أربعة أدوار، إلا أن شقته كانت في الدور الثالث العلوي. أما أنا فقد كنت أسكن في الثاني.

عند اقترابي من شقته، كنت أسمع صوتا غريبا، كان أشبه بالهمس. لعدة لحظات توقفت لأستمع. ذلك الصوت يأتي من الأعلى، ربما من سطح المنزل. صوتان، أحدهما ذكوري والآخر أنثوي. يتعاتبان.

قال ذلك الصوت الأنثوي: «أنت تعلم ماذا فعلنا أمس».

– لم نكن وحدنا، كانت آية معنا وكنا عدة أشخاص.

– وما شأني؟ نحن لم نذهب إلا لغرض أنت تعلمه.

– وكأن الأمر يحزنك.

– لا، ليس كذلك، لكن هذه الأمور لا بد لها أن تنتهي، ألا تفهم هذا؟

– أنا لم أعد أفهم أي شيء.

– من فضلك، حاول أن تتصرف.

– ماذا أفعل؟

– لا أعلم، تصرف معه. ليس مطلوبا مني أن أقول لك كيف تتصرف معه.

حركة الأكياس في يدي وأنا أستمع للحديث أصدرت صوتا عاليا، فجأة قال لها: «صه، هناك أحد قادم».

ابتعد صوتهما، لم أكن متحمسا للاستماع لذلك الشريط اللاذع من النقد بين هذين الغريبين، كما أنني كنت على عتبة منزل أنور أحمل في يدي أكياس الفاكهة تلك.

فتحت لي أم سيد بعدما ضربت جرس الباب.. كانت أم سيد هي الخادمة المؤقتة التي تعمل لدى أنور. كانت تأتي له في أيام معينة من الأسبوع. قالت لي بعد ما دخلت: «الأستاذ أنور كان في انتظارك يا سيدي، لكنه انتقل للمكتب، لديه موعد مهم وطارئ، يمكنك أن تنتظره في غرفة الصالون».

جلست في الصالون عدة دقائق، لم تكن تلك مرتي الأولى التي أجلس فيه، لكنني حاولت أن أتأمل تلك اللوحات الغريبة لعل الوقت يمضي.

لا بد أن لأنور أمرا طارئا للغاية، جعله يقدم ذلك الموعد على دعوة الغداء، ترى ما هو؟!

فجأة، دخل محمد، الابن الوحيد لأنور. كان محمد فتى طويلا يشبه أباه، وهو طالب بكلية الهندسة، حتى في دراسته يشبه أباه.. سلم عليّ وجلس معي قليلا.

كنا كثيرا ما نجلس، أنا وهو، سويا، قال لي: «كنت أود أن أتحدث معك قليلا يا عمي».

– تفضل يا محمد، ما الأمر؟

– في الحقيقة، كان لديّ رغبة ما وكنت أود منك أن تساعدني في الحديث مع والدي.

– لا أفهم.

– كنت أود أن أخطب.

ظللت أنظر إليه لعدة ثوان، ثم قلت: «وما المشكلة في هذا؟».

– والدي هو المشكلة.

– لماذا؟

– هو يرفض أن أفعل ذلك الآن، يراني صغيرا متعجلا مندفع الرأي.

– لأنه والدك وله وجهة نظر.

– لكنني لم أعد صغيرا يا عمي، أنا الآن في الحادية والعشرين من العمر.

– من قال إنك صغير يا عزيزي؟ لكن هذه الأمور تحتاج إلى وقت. وأنت ما زلت طالبا بالكلية.

– سأتخرج في هذا العام.

– أعلم هذا، لكن هذا لا يعني أن وقت الارتباط بأي إنسانة قد حان أوانه.

ثم بادرته بالسؤال: «هل هي زميلتك؟».

رد عليٌّ مرتبكا: «لا، ليست كذلك. الأمر يا عمي أنني أخاف أن تضيع من يدي».

كان ذلك تحويلا مقصودا لمسار سؤالي، ربما لم يرد أن يخبرني عنها. ظللت صامتا لعدة دقائق ثم قلت له: «لن تأخذ سوى نصيبك يا عزيزي».

– هذا الكلام الإنشائي لا يساعد يا عمي.

– حسنا، بماذا يمكنني أن أساعدك؟

– أن تتحدث مع والدي، محاولا إقناعه.

لم أكن مرتاحا لهذا الخيار. كيف لي أن أساعده وأن أحاول إقناع والده بأمر أنا لست مقتنعا به من الأساس؟ هؤلاء الشباب مندفعون فعلا.

قلت له: «سأحاول، لكنني لا أعدك بهذا».

– أنت من اقرب أصدقاء والدي.

– الموضوع ليس كذلك بالمرة.

فجأة دخل والده علينا، قاطعا حديثنا، وقال: «علاء، هذا أنت، إنني آسف على ذلك الفعل الأخرق، كان يجب أن أنتظرك بنفسي، لكن ذلك كان أمرا طارئا حقا».

قلت له: «لا شيء، هون عليك.. ما الأمر؟».

– هل سمعت بما فعله المجلس العسكري؟

قلت مترددا: «ماذا فعل؟ سمعت أنه قد أعلن عن موعد الانتخابات».

– صحيح، لقد فعلوا، لقد أخرجوا إعلانا دستوريا بتاريخ الخامس والعشرين من سبتمبر ونحن الآن في السابع والعشرين. من يظن أنفسهم هؤلاء؟ إنهم يديرون البلد بكل ديكتاتورية صريحة.. هل تصدق هذا؟

– هل يمثل ذلك الأمر مشكلة كبيرة؟

كان واقع سؤالي عليه أشبه بإلقاء جالون من الماء البارد على شخص في عز البرد: انتفاضة واتساع في العينين ودهشة لا مثيل لها.

الحقيقة أن أنور رجل سياسة بارع، وهو مؤسس أحد الأحزاب الليبرالية التي ظهرت بعد الثورة، كما أنه أمين ذلك الحزب في الإسماعيلية وكثيرا ما يظهر على التلفاز، في حين أنني لست سوى صيدلاني لا يعلم من السياسة إلا أن السلطة تنقسم إلى 3 سلطات.

ظل أنور على هيئته تلك لعدة ثوان، ثم تبرع ليشرح لي الأمر وكيف أن تصرفا مثل هذا من قبل الحاكم قد يجهض التجربة الديمقراطية في مصر ويؤجلها.

في درس السياسة هذا، كنت مخيبا للآمال، ظل أنور يشرح لي الأمر ما لا يقل عن نصف الساعة دون أن أبدي أي تحسن في فهمي للأمور.

بعد أن انتهى من كلامه، أحسست بأنه قد فقد الأمل في تحسن أدائي السياسي. لم تكن لديَّ النية للفهم، ما شأني بهذه الأمور السفسطائية؟ دق جرس الباب، قال أنور لي: «لا بد أنه الدكتور حمدي».

بعد دقائق دخل علينا جارنا الجديد، قال لي أنور: «دعني أعرفك: الدكتور حمدي الأمير، جارنا الجديد، أستاذ في كلية الحقوق، وقد أتى هنا تاركا العمل للراحة».

– دكتور حمدي، أعرفك بعلاء عزت، جارنا بالدور الثاني، صيدلاني.

تبادلنا التحية، قال لي الدكتور حمدي: «تقابلنا صباحا، سعيد لرؤيتك».

قال لنا أنور: «لا بد أنكما جائعان، دعونا نكمل الحديث على الغداء»، ثم قال رافعا صوته مناديا أم سيد: «هل الغداء جاهز يا أم سيد؟».

– جاهز يا سيدي.

نظر إلينا مبتسما ثم قال: «تفضلا.. الغداء بانتظارنا».

لم أكتب هنا أن أنور رجل مطلق.. زوجته كانت تسكن معه في هذه الشقة قبل الطلاق، إلا أنها بعد الطلاق تركت المدينة بأكملها وذهبت لتعيش بالإسكندرية، كانت حادثة طلاقهما أمرا محزنا للغاية.

كان ذلك واحدا من أحد المواضيع المفضلة لدى إيناس التي قتلتها بحثا للتعرف على مسببات أمر كهذا.

أما الدكتور حمدي، جارنا القديم الجديد، فلا أتذكر عنه شيئا، ما أتذكره أنه كان جارا لنا قبل هذا اليوم بما يقارب عشرة أعوام، كان

أستاذا في الجامعة في كلية الحقوق، وقد رحل منذ عقد للعمل بجامعة القاهرة، وها هو يعود اليوم.

قال أنور محدثا الدكتور حمدي: «علاء خبرته السياسية لا تتعدى خبرتي في صناعة القنابل الذرية».

نظر إليَّ حمدي وقال: «لماذا يا دكتور علاء؟».

قلت: «لست مهتما بأمور الحكم، لديَّ اهتمامات أخرى».

- إذًا هل يمكننا أن نطلق عليك أنك من أنصار ما يعرف باسم حزب الكنبة؟

لم أستفز من هذا الوصف إلا عندما أطلق عليَّ، كيف أصبح منتميا لأريكة؟!

قلت مدافعا عن نفسي: «ليس لهذه الدرجة، كل ما في الأمر أنني لا أبدي اهتماما بدقائق السياسة، لديَّ نظرة أكثر سطحية».

قال أنور محدثا حمدي: «ماذا ترى في إعلان العسكري لفتح باب الانتخابات؟».

قال: «أمر طيب، لكنه معيب.. كيف لهم أن يخرجوا إعلانا دستوريا دون إعلام الشعب بذلك؟».

انفعل أنور قائلاً: «هؤلاء العسكر يتلاعبون بالشعب، ألا يدرك هؤلاء أن أمرا كهذا لا يتناسب مع الديمقراطية؟».

– لكن يا عزيزي، التأييد الشعبي الذي يتمتعون به في الطبقات الفقيرة يمنحهم الجرأة لفعل أكثر من ذلك.

– بالتأكيد، إنهم يتلاعبون بالدولة كما لو كانت شأنا خاصا.

– لا تنسَ أن العسكرية لا تتناسب مع الديمقراطية.

قطعت حديثهما قائلاً: «كيف لا تتناسب؟».

ابتسم حمدي ثم قال: «في العسكرية يا دكتور علاء، الأمر لا يحتاج للنقاش، في الحرب عليك أن تطيع أوامر القادة، الإبداع هناك أمر له قيود، لا يمكنك التفكير بصورة أوسع. أمر كهذا لا يتناسب مع الحكم المدني الذي يمنح للجميع حق الحديث في الأمور كلها. العسكر بطبعهم اعتادوا أمرين: إطاعة أوامر من هم أعلى منهم رتبة وإعطاء الأوامر لمن هم دونهم في الرتبة، الحياة العسكرية لا تسمح بغير ذلك، لكن الحياة المدنية الديمقراطية لا يمكنها أن تعتمد فقط على الأوامر، على الشورى أيضا».

قلت له: «لكن الأمر لا يحتاج لمزيد من أخذ الشورى، الشعب يريد انتخابات، ما الأمر الذي يحتاج للشورى؟».

– الرؤية يا عزيزي، تلك الانتخابات تحتاج إلى رؤية، كيف تدار، كيف تقسم الدوائر، وكيف سيتم الانتخاب، ومن ينظمها.. هذه الأمور تحتاج لنقاش مجتمعي.

– لكنني أظن أن الأغلبية العظمى من الشعب تعطي للمجلس العسكري الثقة الكاملة في إدارة أمور كهذه.

– هذه هي المشكلة يا دكتور علاء، الأغلبية العظمى تعطي ثقة مطلقة لجهة ما، وللأسف فإن تلك الجهة لا يوجد من هو قادر على حسابها.. أمر كهذا قد يتسبب في كارثة أو مصيبة لا يعلم مداها إلا الله.

قال أنور: «بالتأكيد، العسكر ليسوا مدربين على الحياة السياسية من الأصل».

أكد حمدي كلامه بإيماءة من وجهه. وقال: «ليسوا مؤهلين لأن طبيعة عملهم لا تستلزم معرفة الأمور السياسية، هذا ليس خطأ، الخطأ كل الخطأ أن تسير في طريق غير معلومة نهايته، والإصرار على الخطأ، قل لي يا دكتور عزت، ماذا كان رأيك في استفتاء مارس الماضي؟».

قلت له: «لقد قلت نعم، أنا أتمنى أن تسير عجلة الإنتاج».

– وأنت مقتنع تمام الاقتناع أن «نعم» هي التي ستقود البلاد نحو

الرخاء؟

– على الأقل ستبعدنا عن الفوضى.

– هذا رأي الأغلبية الكاسحة من عموم المصريين، وهو رأي طيب ولا جدال فيه. لكن بعد أكثر من ستة أشهر على الاستفتاء، هل ترى أن «نعم» قد آتت ثمارها؟

– بالتأكيد لا، ما زال أمامنا المزيد من الوقت، ما زلنا نحتاج إلى الوقت لكي تنتهي هذه الاعتصامات والمظاهرات.

ابتسم الرجل وقال لي: «أنت يا دكتور عزت تمثل عموم الشعب».

كان ذلك من رأيي إطراءً لي، على الأقل وصفي بأنني أمثل عموم الشعب أزاح عني الشعور بالإهانة من انتمائي لأريكة.

فجأة قال أنور: «هل استمع أحدكم لما قاله الشيخ حسنين عني أمس الأول؟».

لم يكن الشيخ حسنين – بحكم معرفتي به – ذا أثر طيب على نفسي، قال حمدي: «ماذا قال هذا الرجل؟».

نظر أنور إلينا مبتسما ثم قال: «اتهمني بالزندقة والكفر، بل علمت من أحد معارفي أنه قد أهدر دمي».

قطَّب حمدي عن جبينه ثم قال: «ما تقول ليس أمرا هينا ولا يستحق تلك الابتسامة يا سيد أنور».

– في الحقيقة يا أستاذ حمدي، أمثال هؤلاء من هم على شاكلة حسنين السيوطي، لا وزن لآرائهم عندي.

– المشكلة ليست في آرائهم، المشكلة في من يستمع لهم، لن يكون أمرا طيبا أن يحاول أحدهم أن يفعل ما فعل سابقا مع فرج فودة، واعذرني على استخدام وصف كهذا.

صحيح أنني أعلم آراء الشيخ حسنين الشاذة في الكثير من الأحيان، إلا أن نطق أسماء لا أعلمها في جلسة أنا جالس بها، ليس أمرا هينا علي. قلت لحمدي: «من هو فرج فودة؟».

نظر حمدي إليّ ثم قال: الحقيقة أن فرج فودة ليس سوى مثال.

قلت له مفسرا: «أنا لا أعرفه».

ما أن سمع حمدي هذه الجملة حتى ارتدى ثوب الأستاذ الجامعي وقال لي بصورة شامخة تذكرني بوالدي: «فرج فودة هو مثال يا دكتور عزت لهؤلاء الذين قُتلوا غدرا باسم الدين عن جهل، فرج فودة كان أحد هؤلاء الذين اختلفوا فكريا مع أبناء التيار الإسلامي، له مناقشات مع الإمام الغزالي والمرشد العام للإخوان المسلمين وقتها، بل وصل الأمر إلى أن

أهدر أحد الشيوخ دمه فكانت نهايته مأساوية؛ حيث قتله أحد تجار السمك، ولما تم القبض على القاتل ووُجهت له تهمة القتل أمام المحكمة كانت المفاجأة حين سأله القاضي: لم قتلت فرج فودة؟

رد عليه القاتل وأخبره بأنه يعلم بأنه كافر، فسأله القاضي: من أي من كتبه علمت أنه كافر؟ فرد القاتل قائلا إنه لا يعلم القراءة والكتابة.

لعدة لحظات ظللت مندهشا من أمر كهذا، صحيح أن البعض قد يتعصب لدينه أو انتمائه الطائفي، لكنني لم أسمع عن تجار سمك لا يجيدون القراءة والكتابة يقتلون الناس.

ثم تابع حمدي قائلاً: «هذا ليس سوى مثال».

قلت له: «ربما ليست تلك القاعدة».

– بالتأكيد هذه ليست القاعدة يا سيدي، لكن هناك من الأمثلة ما يكفي لأخذ الحذر من أمور كهذه. السادات ما زال في الذاكرة إذا كنت تعلم قصته.

كان الرئيس السادات قد اغتيل منذ أكثر من 30 عاما على أيدي بعض المتطرفين. هذا أمر يعلمه جل المصريين، قلت له: «لكن هؤلاء تراجعوا عن أفكارهم».

رد عليٌ حمدي مبتسما: «وبماذا يفيد أو يضر الشاه من سلخها بعد الذبح يا عزيزي؟ هل أعاد هذا التراجع السادات إلى الحياة؟ بالتأكيد لا، أمر كهذا لا يمكن الانتظار لحدوثه، لكن عليك منعه».

تدخل أنور قائلاً: «وهل تظن مثلا أن يحاول أحد أن يفعل ما تتحدث عنه؟ هم ليسوا أغبياء لهذه الدرجة، أمر كهذا قد يفقدهم شعبيتهم الجارفة».

رد حمدي قائلاً: «من يفعل هذا يا عزيزي ليس شخصا سياسيا بالمرة، هؤلاء شباب متعصبون لا يملكون أي معرفة بتوابع أفعالهم سياسيا».

صمت قليلا ثم تابع: «الأمر جد خطير، عليك أن تنتبه».

بدا لي أن حمدي يتحدث عن معرفة، كانت كلماته كلها أكثر جدية من التي تسبقها.

# الفصل الثالث

بعد الانتهاء من الغداء، طلب لنا أنور الفاكهة.. ظل الحديث بعد ذلك يدور عن أنواع لفافات السجائر وأجودها وأفضلها.. كان أنور مدخنا شرها، على عكسي أنا وحمدي، لكن حمدي كان لديه خبرة في هذا الأمر، أما أنا فالأمر عندي لا يختلف كثيرا عن معرفتي السياسية الصفرية التي أذهلت أنور، كان حمدي شخصا محبوبا يمكنك الاطمئنان له، كما أنه ذو روح طيبة تزرع الطمأنينة في النفس فتمكنك من الحديث معه دون ريبة أو خوف.

لوقت ليس بقليل، سرحتُ بأفكاري عن حديثنا عن التطرف وأصحاب الأفكار المتطرفة، هل حقا من الممكن أن يفكر أحدهم في أن يؤذي أنور؟ هذا ليس أمرا غريبا إذا حدث، ما قاله حمدي لا يمكن الاستهانة به مطلقا، القتل باسم دين ليس وليد اللحظة.

كنت قد قرأت قبل ذلك عن أمر كهذا في العصور الوسطى، في أوروبا، حين كانت المسيحية ذات سيطرة طاغية على شعوب القارة

العجوز.. كان للبابا سلطة طاغية وقتها على عروش ممالك أوروبا.

الحروب الصليبية مثال على القتل المباح باسم الدين دون وجه حق، ربما كانت بحسن نية. لا أحد يعلم مثلا نوايا أوربان الثالث القلبية وقتما دعا لتلك الحروب!

كم هذا مرعب! القتل.. لماذا أفكر في الأمر، أم أن هناك أمرا يشغل بالي؟

فجأة قال لنا حمدي إنه يود أن يستأذن لأن لديه موعدا ما. تبادلنا التحية مع وقت بتكرار تلك الجلسات. كنت أود أن أنصرف.

إلا أن أنور قال لي إنه يود أن يتحدث معي، كنت أود أن نشرب القهوة، ولأن أنور لديه عادة شرب القهوة في هذه الساعة من اليوم فقد طلب لنا فنجانين من القهوة المضبوطة التي يفضلها، على أن نشربها في مكتبه.

كان لأنور شقة أخرى في نفس الطابق الذي يسكن به، إلا أنه كان يستخدمها كمكتب هندسي له، يعقد به اجتماعات حزبه أحيانا بما أنه كان أمين حزبه في الإسماعيلية.

قبل أن نشرب القهوة، قال لي: «هل فكرت في الأمر الذي حدثتك

عنه منذ أيام؟».

كنا وحدنا، ولهذا كان يتحدث بلهجة مختلفة قليلا، قلت له: «أنت أعطيتني مهلة أسبوعا لأفكر، لم يمض من الأيام السبعة إلا ثلاثة».

ابتسم لي بلا معنى وقال: «لا مشكلة يا صديقي».

قلت له: «لا تقلق، سنصل لاتفاق يرضينا جميعا».

كان لدى أنور رغبة في مشاركتي ببعض الأمور المالية، ولأنني أكره الضغط في تلك الأمور فقد شربت القهوة سريعا قبله، فقد كان بطيئا في شربها كما أعرف وتأكدت أن كل شيء على ما يرام ثم هممت بالانصراف.

***

في المساء بعد أن انتهيت من العمل في الصيدلية عدت للمنزل، كانت إيناس بانتظاري.. سألتها عن حال والدتها، وسألتني هي عن دعوة الغداء مع أنور، أخبرتها بأمر حمدي جارنا الجديد، تلك الالتماعة المفاجئة التي ارتسمت في عينيها، بدا الأمر وكأن فريسة جديدة تلوح في الأفق. ثم أخبرتها بخصوص ما قاله الشيخ حسنين، مرجعيتها الفكرية في الفترة الأخيرة. قالت لي إن الشيخ حسنين لا يمكن أن يكون قاتلا، كما يصور لي عقلي.

كما أن لأنور – جارنا – آراء شاذة لا تتفق مع الدين، كما أنه رجل علماني.. لعدة دقائق ظللت أدقق في إيناس، الآن باتت تدرك قطتي الصغيرة كلمة علماني.. هذا أمر ليس مبشرا على الإطلاق.. هؤلاء أشباه الشيوخ يزرعون في أفكار المسكينة كلمات وأفكارا لا تبشر بأي خير.. لعدة دقائق جال في خاطري فكرة أن تتحول إيناس، عزيزتي طيبة القلب، إلى هؤلاء الذين كان يتحدث عنهم حمدي على الغداء، القتلة الجهلة باسم الدين.

ظلت إيناس تنظر إليّ مندهشة وقالت: «ما الأمر اليوم؟ كثيرا ما تذهب بأفكارك بعيدا».

أخبرتها عمّا قاله حمدي عن فرج فودة وحادثة قتله، ظلت مندهشة لهذا الأمر ثم هزت كتفيها وقالت: «هذه الأمور محض افتراء على الإسلاميين» ثم غادرت الغرفة.

حديث إيناس عن الإسلاميين في الفترة الأخيرة أمر ليس مبشرا على الإطلاق، أنا لست ضد الدين، لكنني ضد المتاجرة به، وهؤلاء القوم يتاجرون به فعلا.

أضيت الساعة الأخيرة من اليوم جالسا في شرفة المنزل. كنت

أتابع حركة الشارع بالأسفل. هذه المدينة الهادئة في المساء لا يمكن أن تتصورها بشكلها في أثناء حركة العمل. كان حديثي مع حمدي وأنور يشغل بالي، القتلة باسم الدين.. هؤلاء الذين يستغلون الوضع من أجل مصلحة شخصية، أتذكر ذلك الفيلم الأجنبي الذي شاهدته منذ سنوات عندما قال أحدهم إنه ما دام هناك إله في السماء فإن هناك من يستغل ذلك ويقتل باسمه على الأرض، لطالما نظرت إلى تلك الجملة على أنها حق يراد به باطل.

هؤلاء يقتلون فعلا.. نسيم الهواء البارد لم يعطني الفرصة في المزيد من الوقت للجلوس.

***

«صراخ، دماء، أنور يهتف ويقول لي: من فضلك يا علاء، لا تتركني هنا. نظرت خلفي، أنور المضرج في دمائه وهو يقول لي لا تتركني، من فضلك لا تتركني وحدي.

فجأة بدأ يغوص في الأعماق، لا أعرف كيف، كنت أحاول أن أمد يدي له، كان هو يبتعد بعيدا..».

فجأة استيقظت من النوم، كانت الساعة تشير إلى الرابعة فجرا.

***

# الفصل الرابع

لم أشأ أن أفطر في الصباح.. تلك الرؤيا الدموية أقلقت نـومي، بعـد أن أشرقت الشمس ودبت الحركة في الشارع، ذهبت إيناس إلى عملـها، لم أخبرها بما شـاهدته في رؤيـاي، فقـط ارتـديت ملابسي وقـررت أن أزور أنور، عليَّ أن أخبره بما رأيته. عليَّ أن أحذره.

كانت الهواجس تنتابني بشدة، ترى كيف يمكـن لـي أن أخـبره؟ هل من الممكن لرجل عملي مثله أن يصدق كلامي هذا؟ ترى كيـف سيتقبل كلامي هذا؟!

لعدة لحظات توقفت أمام باب الشقة قبـل أن أدق الجـرس. كانـت الساعة تشير إلى السابعة والنصف. ترى هل من العقل أن أفزعه بما رأيت في هذا الوقت المبكر؟

لثوانٍ قلت في نفسي: «ترى هل سأراه حيا؟».. أشعل ذلـك الـسؤال القلق في قلبي.

ضربت الجرس مرتين، بعد عشر دقائق تقريبا، فتح لي محمد، كان يبدو نائما. قلت له: «أنا آسف يا ولدي، لكن هل يمكنك أن تيقظ والدك؟».

كان محمد ينظر إليّ بنصف عين مفتوحة، كان واضحا أنه قد قام مفزوعا، إلا أنه بعد أن سألته عن والده قال لي: «تفضل يا عمي».

دخلت إلى الشقة، ودخل هو إلى غرفة والده لإيقاظه. بعد دقائق قال لي: «ليس في غرفته، وسريره مرتب، يبدو أنه لم ينم طوال الليل، لقد أتيت إلى المنزل في الساعة الواحدة وكان في مكتبه، يبدو أن لديه عملا مهما».

قلت له: «هل يفعل ذلك كثيرا؟».

– كثيرا ما يسهر في المكتب، لكنه لم يحدث أن بات ليلته هناك.

– هناك مدخل للمكتب من الشقة، هلا دققت عليه الباب.

لعدة دقائق، ظللنا ندق على الباب دون فائدة، قال لي: «لعله نام في المكتب من التعب».

قلت له: «هل يوجد مفتاح لهذا الباب لديك؟».

– بالتأكيد، ثوانٍ حتى أحضر المفتاح.

غاب لدقائق ثم عاد ليفتح الباب، كان والده جالسا على كرسيه في المكتب وأمامه أوراق كثيرة.. كان جالسا كما تركته بالأمس، يبدو أنه لم يبرح مكانه من الأمس.

اقتربت منه، كان نائما في هدوء، حاولت إيقاظه، دون فائدة، لونه الوردي يبدو غريبا بعض الشيء. تحسست جسمه، كان باردا للغاية.. كيف له أن يبيت ليلة في هذا البرد في مكتب مفتوح النوافذ؟ ألم يخف حتى من الانفلات الأمني؟

تحسست نبضه.. كان متوقفا.. لون وردي، وجسد بارد.. يا إلهي.

نظرت لمحمد وقلت له أن يطلب الإسعاف، لم أعرف ما إذا كان ذلك التصرف هو الواجب عمله أم لا، ظللت واقفا بجانب أنور أنظر إليه في دهشة..

جسده البارِد يغوص في أعماق الهدوء.. صامت وربما صامت للأبد. على مكتبه الوثير، بلا حراك. يداه ممدودتان على المكتب. وقد تدلت رقبته للأسفل.. نظرت إلى مكتبه، الدرج العلوي مفتوح نصف فتحة.. يبدو أنه قد نسيه. فتحته بنوع من الفضول ثم أغلقته مرة أخرى..

بعد دقائق أتى محمد وأخبرني بأنه قد اتصل بالإسعاف.. ثم قال

لي وقد بدا الخوف والترقب على وجهه: «ما الأمر يا عمي؟».

- والدك.. يبدو متعبا قليلا..

ثم نظرت إلى جسد والده الساكن.. بقينا ربع ساعة تقريبا في انتظار الإسعاف. بعد أن أتى المسعفون، نظر أحدهم للجسد الراقد وتحسس النبض، ثم هز رأسه في إشارة لزميله.. تلك الإشارة البغيضة التي تعني أنه لا فائدة. نظر إلى الجسد ثم نظر إلينا وقال:

- لا أمل، هذا الرجل توفي منذ فترة.. ويبدو عليه آثار التسمم بالسيانيد، علينا أن نبلغ الشرطة.

لدقائق لا أعلم مداها مرت عليَّ بلون قاتم، يا إلهي.. هل يمكن أن يحدث ذلك؟ أن يختفي رجل بهذه الصورة بعد أن كان جالسا إلى جانبي بالأمس..

محمد ظل جالسا يحدق بوالده دون أن ينبس بأي كلمة، كان ذلك تصرفا مدهشا، بدا صلبا ومتماسكا بصورة رائعة. أتت الشرطة وبدءوا في معاينة المكان، بعد أن أفقت من أثر الصدمة بدأت أفكر في ذلك الضابط، ترى هل سيتفهم إذا قلت له إنني أتيت لأنني رأيت رؤيا أثناء النوم؟! هل سيكون عليَّ أن أكذب؟! ماذا أفعل؟

لا أحد يعلم بأمر ما رأيت، لم أخبر إيناس بأي شيء، ولم أخبر

محمدا.. سأخبره بأنني كنت أود أن أتحدث معه عن أمر طارئ بخصوص التجارة التي كان ينوي مشاركتي فيها.. قد يكون هذا سببا منطقيا، خصوصا أنه لا أحد يعلم بهذا الأمر سواي أنا وأنور.

وصل المحققون إلى المنزل، بدءوا في فحص المكان وفحص الجثة.. كان واضحا علامات التسمم بالسيانيد، يا إلهي، كيف لم يخطر هذا الأمر في بالي؟

بعد وقت ليس بقليل ظهر حمدي، جارنا.. قدم نفسه للمحقق الذي رحب به بصورة غريبة وكأنهما على معرفة سابقة.. اقترب حمدي منا – أنا ومحمد – وقال لنا:

«هل أنتم من اكتشف الجثة؟».

قلت له: «نعم، نحن».

نظر إليَّ حمدي بدهشة وقال: «حسنا، لقد استأذنت المحقق لكي تذهبا معي، سنصعد إلى شقتي، هيا بنا».

صعدنا إلى شقة حمدي، كانت تلك المرة الأولى التي أدخل شقته فيها، جلسنا في المطبخ. قدم لنا عصير الليمون وقال لنا: «اشربا هذا».

كان محمد لا يزال محدقا دون أي هدف، نظر إليه حمدي وقال:

«أنت تحتاج للنوم يا ولدي، تعال لتنام في غرفتي» كان محمد منقادا بصورة غريبة.

بعد أن أدخل حمدي محمدا لينام لغرفته، عاد إليَّ وقال: «حسنا، ما الذي حدث؟».

لم أكن لأكذب على حمدي؛ لذا أخبرته بأمر ما رأيته في المنام، لا أعرف ما الذي دفعني لذلك، على الرغم من أنني لم أكُن أنوي أن أخبر المحقق بأمر كهذا، من كان ليصدق أمرا كهذا؟

استمع حمدي لي بإنصات ثم قال: «أمر غريب حقا يا عزيزي».

أخبرته بأنني لا أنوي أن أخبر المحقق بأمر كهذا فقال لي: «أتفهم هذا، أنت تخشى ألا يتفهم موقفا كهذا».

وافقته بإيماءة من رأسي، ثم قلت: «كيف دخلت إلى الشقة بالأسفل وتحدثت مع المحقق؟ هل الأمر بهذه السهولة؟».

ابتسم لي وقال: «الأمر أنه أحد تلاميذي، هو يعرفني. أنا أستاذ بكلية الحقوق قسم القانون الجنائي؛ لهذا لم أجد حرجا في الحديث إليه».

قلت له: «هل سيحقق معنا؟».

- هذا أمر مطروح يا عزيزي، لا تقلق..

- كيف لي بألا أقلق؟

- هاك عصير الليمون، اشرب وهدئ من روعك.

***

الشعور بالخوف تملكني بعد ذلك، بعد أقل من ساعة طلب المحقق لقاءنا في شقة حمدي.. كان واضحا أن هناك علاقة طيبة بين التلميذ وأستاذه، صعد إلينا وطلب لقائي أنا ومحمد، لكن حمدي اعتذر بالنيابة عن محمد بدعوى نومه لشعوره بالصدمة.

جلس المحقق أمامي وقال لي: «هل يمكننا أن نتحدث سويا قليلا يا دكتور علاء؟».

- بالتأكيد.

- شكرا، حسنا، لقد تم فحص الجثة ولقد تبين أن الرجل قد توفي بعد المغرب تقريبا. الأغلب أنه قد شرب قهوة مسمومة، كما أننا وجدنا هذه.

أمسك بيده بورقة ثم أطلعنا - أنا وحمدي - على الورقة.. كانت ورقة مطبوعة، مكتوبا عليها بلغة عربية قوية أنه هو - أنور مجدي - قد قرر الانتحار؛ لأنه يشعر بالذنب، وقرر مراجعة نفسه حيال الأمر..

لقد أخطأ كثيرا في حق الدين وحق الكثيرين ممّن هم حوله وقد قرر أن يبتعد عن حياتهم للأبد، وعليه فإنه قد قرر الرحيل.

نظرت إلى الورقة ثم نظرت إلى حمدي، كان مقطب الجبين غير مصدق لما تحتويه الورقة، إلا أنه بادر المحقق وقال: «حسنا، ما قولك يا أكمل؟».

رد المحقق وقال: «أغلب الظن أن الموضوع منتهٍ، تاريخ الرجل الجدلي في أمور الدين معروف، وهذا أمر لا جدال فيه.. الأسباب في هذه الرسالة تبدو منطقية كما ترى، لكننا نحتاج لأن نسأل عدة أسئلة روتينية للتأكد ليس أكثر».

ثم نظر ناحيتي وقال: «ما الذي دفعك يا دكتور علاء لزيارة السيد أنور في هذا الوقت المبكر من الصباح؟».

أخبرته بأمر المشاركة التجارية، لم أكن لأغامر وأخبره بأمر الرؤيا الليلية تلك.. يبدو أنه اقتنع بأمر المشاركة التجارية بعد أن أومأ برأسه ثم قال لحمدي: «لا أود أن أزعج ابن الفقيد، لكني سأحتاج للقائه، سأكون بانتظاره في مقر التحقيق. لا يمكنني أن أعدل عليك يا أستاذي.. الأمر يبدو فعلا كانتحار، لكننا نحتاج لبعض الأسئلة الروتينية كما أخبرتك».

تقبل حمدي المدح لشخصه بصورة باردة، ثم غمغم بما معناه أن

محمد سيحضر للتحقيق وسيحضره بنفسه. لم يطل المحقق الجلوس، سرعان ما استأذن ورحل..

لم أكن أمتلك الكثير من القدرة على البقاء؛ لذا استأذنت حمدي للنزول إلى شقتي، قال لي حمدي: «أحتاج للجلوس معك اليوم أو غدا».

– بالتأكيد، أنت يبدو عليك الحزن وكأنك كنت معنا حين اكتشفنا الجثة.

– لا، الأمر ليس كذلك، فقط أنا حزين على الرجل، وحزين عليَّ.

– حزين عليك؟

نظر إليَّ وابتسم ابتسامة باهتة وقال: «يبدو أنني لم أنجح تماما في مسيرتي التعليمية، هون عليك، الأمر لا قيمة له. فقط انتظر مني لقاء، أظن أنني أمتلك رقمك الشخصي، آه، نعم لقد أخذته منك بالأمس. اليوم أو غدا فقط انتظر مني اتصالا بالميعاد. أحتاج للكثير من التفكير في مسيرتي التعليمية كما ترى».

لم أفهم ما الذي أدخل مسيرته التعليمية في الأمر.. انصرفت دون أن أسأل..

***

عادت إيناس للمنزل، يبدو أنها عرفت بالأمر، جلست بجانبي محاولة أن تهون الأمر علي، كم هي رائعة تلك المخلوقة. لم تتركني يومها إلا لتجهز لنا الغداء. لم أكن قادرا على أكل أي شيء، إلا أن إصرار إيناس لم يترك لي فرصة إلا للرضوخ لكلامها.

بعد أن حل الليل وذهبنا للفراش، لم أمتلك القدرة على النوم.. ذهبت إلى الشرفة.. هذا الليل الجاثم على صدر هذه المدينة لا يحمل الكثير في طياته.

في تلك الليلة أمسكت بالقلم وقررت أن أكتب ما حدث، كان لديّ شعور بأن الأمر لن ينتهي على هذا الحال، وإن انتهى، فقد كان الأمر حقا يستحق التدوين..

# الفصل الخامس

في صباح اليوم التالي لم أذهب للصيدلية، اتصل بي حمدي كما وعدني، طلب لقائي في منزلي. جلسنا سويا، سألته عن التحقيق مع محمد ابن الفقيد فأخبرني بأن الموضوع كان مجرد أسئلة وقد أجاب عنها الفتى من دون أي مشاكل.

ثم قال لي: «هل تظن حقا أنه انتحر؟».

نظرت إليه وقلت: «هل ترى شيئا آخر؟».

– عقلية كعقلية أنور ليست من تلك العقليات سهلة الإحباط بهذا الشكل.

– ولكن في رسالته الأخيرة هو لم يتحدث عن إحباط.

– تحدث عن عدم احترام للدين.

– آه، ما الذي أوجد الإحباط إذًا؟

– لنفترض أنه شعر بذلك، هل تظن أن عقليته تلك قد تفكر بالاستسلام والتأسف والرحيل دون تصحيح الأخطاء؟ إن افترضنا أنه فعلا قد أدرك أنه على خطأ.

– لا أعلم.. وضح لي ماذا تقصد.

– من حديثنا على دعوة الغداء مع أنور أمس الأول، لا أظن أن رجلا كهذا يمكن أن يستسلم، ولا أظن أنه غيَّر من طريقة تفكيره التي تحدثنا عنها في ذلك اليوم.

– بمعنى؟

– دعنا نفكر يا عزيزي بصوت عالٍ، أنور كان أحد المؤسسين لأحد الأحزاب الليبرالية التي ظهرت على الساحة من بعد الثورة. إذًا هو رجل فاعل في حياته ومهتم بالمجتمع، وذو تأثير واضح وقد يكون ملموسا عما قريب.

– الكثير من السياسيين – إن لم تخنّي الذاكرة – انتحروا.

– لأسباب مقنعة، لا لأنهم يرون أن ما بنوه يخالف أفكار غيرهم، أقصد من كلامي أن أنور لم يتعرض لأي انتكاسة قريبة تجعله يفكر في مراجعة أفكاره، على العكس، الرجل يوم كنا معه كان واثقا من نفسه معارضا لمن يختلف معهم، بدا غير خائف منهم.

– هذا أمر نفسي، كما تعلم، كل منا له لحظة ضعف وربما ظهر هذا الأمر في لحظة ضعفه. لقد درست علم النفس وأدرك هذا جيدا.

– هذا هراء، لا يمكن لإنسان أن يشعر بهذا الضياع فجأة دون سابق إنذار، كما لا يمكن أن يدخل للتفكير وحده في مكتبه وهو يضع حبوب السيانيد في جيبه كما تعلم..

– أحاول أن أفهمك، ولكن بالتأكيد كان لديه دوافعه.

– ما هي؟ إذا تحدثنا على الصعيد الاجتماعي، أنور مطلق منذ فترة كما علمت وأمر طلاقه ليس أمرا حديثا، على صعيد العمل العام، كان مؤسسا لحزب سيشارك في الانتخابات النيابية عما قريب، على الصعيد الاقتصادي فقد علمت أنه في أفضل حال.

– الناحية الدينية.

– أمر كهذا يحتاج لمراجعة فكرية لا يمكن لها أن تتم في ساعة أو ساعتين.

– إذا؟

– هذا الرجل لم ينتحر، الأمر بعيد كل البعد عن الانتحار.

لعدة ثوانٍ ظللت أنظر إليه دون تفكير، ثم أطلقت سؤالا لم أجد له

إجابة وقتها في ذهني: «إذًا كيف مات؟».

لم يبعد ناظريه عني ثم قال: «قُتل».

– ماذا؟

– كما أخبرك الآن تماما، صديقك لم يقتل نفسه كما قال تلميذي الأحمق هذا. لقد قُتل وبدم بارد، إذا صح التعبير..

– هل يمكن أن يكون قد حدث له ما حدث لفرج هذا الذي تحدثت عنه؟

– هل تقصد فرج فودة؟

– نعم ذلك الرجل الذي قتله من لا يقرأ ولا يكتب.

– لا أظن..

– لماذا؟

– أنت لا تفهم يا عزيزي مبدأ هذه الجماعات في القتل إذا لجأت إليه، هم لا يقتلون لإزاحة أشخاص فقط، بل يقتلون ليكون المقتول عبرة لمن يعتبر..

– لكن الشيخ حسنين كما سمعت أهدر دمه!!

– وهذا أمر يستحق الدراسة، لكن التسمم بالسيانيد ليس تلك

الميتة التي يمكن أن يتباهى بها قاتل من هؤلاء.

– يتباهى؟

– بالتأكيد، ما الغرض من القتل والهروب إذا كنت ستخدم دينك؟

– لا أفهمك..

– لا تشغل بالك، دعنا نفكر في أمر الرجل المقتول هذا..

– ماذا نفعل؟

– نبحث.

– عمَّ سنبحث؟

– عن القاتل.

– وما دور الشرطة إذًا؟

– سنساعدها.

– وكيف نفعل ذلك؟ إذا صح اعتقادك فهذه جريمة قتل، ليست لغز البحث عن الكنز، كيف لنا أن نتدخل في عمل الشرطة؟

– سنفعل ذلك معهم.. لا يمكنني أن أقنع ذلك التلميذ بخطئه في التفكير وهو مقتنع تمام الاقتناع بأن الأمر ليس سوى حادثة انتحار..

ظللت صامتا لعدة دقائق أفكر ثم قلت: «ماذا يمكنني أن أفعل؟».

– لا أود أن أكون وحدي، يمكنك أن تساعدني في التفكير.

لم أكن أود أن أتركـه وحـده، كمـا أنـني استـشعرت بـأن في الأمـر مغامرة قد تكسر حاجز الملل الذي أعيشه طوال اليوم..

اتفقنا على أن نفكر ونبحـث في الأمر لنتأكـد في صمت، أخبرنـي بأننا سنظل على اتصال طوال الفترة المقبلـة إلى أن نـصل إلى حـل. لا أنكـر شعوري بالإثارة وأنا أكتب هذه الكلمات.

***

في مساء ذلك اليوم، كان العزاء، ما علمته لاحقا أن طليقة أنور قـد أتت من الإسكندرية لتحضر العزاء. علمت أنهـا حـضرت بـالأمس عنـدما علمت بالأمر، أخبرتني إيناس بهذا الأمر لاحقا، لكنها لم تبـت في شـقة أنور، كانت لها شقة خاصة في الإسماعيلية؛ لذا فقد باتت بها، وبالتأكيد فقد بات ابنها معها في تلك الأيام.

في أثناء العزاء، جلس حمدي بجانبي، فجأة هزني بطريقة لطيفة وقال لي: انظر هناك.. كان يشير برأسه نحـو إحـدى القادمـات للعـزاء، كانت تلك أم سيد، الخادمة التي كانت تعمل لدى أنور.

قال لي: «تعال معي، لدينا بعض الأسئلة التي علينـا أن نـسألها إياها؟».

خرجنا من العزاء المقام في الشارع، كانت السيدة العجوز تصعد على السلم حين نادى حمدي عليها، لم تكن قد ابتعدت، عادت إلينا مسرعة وهي تغمغم بكلمات من أمثال: يا بك.. كانت أم سيد من هؤلاء السيدات اللاتي تجاوزن الخمسين من العمر، إلا أن ضيق اليد لم يترك لها مجالا إلا العمل في الخدمة في المنازل. ابتسم لها حمدي وأخرج من جيبه عدة جنيهات وقال لها: «هذه لك، لكنني أود أن أسأل بعض الأسئلة.. هل تسمحين لي؟».

– بالتأكيد يا سيدي.

– الأمر يتعلق بالسيد أنور.

– رحمة الله عليه، كان رجلا طيبا للغاية. كان دائما ما يتذكرني في المناسبات.

صمتت ونظرت إلى تلك الجنيهات التي أخذتها من حمدي بحسرة وقالت: «الآن سأضطر للبحث عن عمل آخر، بعد وفاة السيد أنور».

قال لها حمدي: «متى رحلتِ من المنزل في يوم وفاته يا أم سيد؟».

– في السابعة مساء تقريبا، لا يمكنني أن أتأخر عن ذلك؛ فأنا أسكن في عزبة الحلوس والطريق إلى هناك لا يؤتمن بعد ذلك.

كانت عزبة الحلوس هي إحدى الضواحي التي تحيط بحدود المدينة.

سألها حمدي: «ألا تذكرين أي شيء قبل رحيلك؟».

– شيء مثل ماذا؟

– أي شيء بدا غريبا في ذلك الوقت.

– لا شيء، ما أتذكره أن السيد أنور كان قد أعطاني حسابي في وقت مبكر من اليوم.

– هل اعتاد أن يفعل ذلك، أم أنه يعطيك الحساب حين تنتهين من عملك؟

– لا يا سيدي، فعلا هو يعطيني حسابي حين أنتهي من العمل، لكن لأنه كان قد طلب مني قبل ذلك أن أحضر له بعض المنظفات في طريق قدومي، فقد أعطاني الحساب جملة واحدة قبل ذلك.

نظر لي حمدي بعد أن سمع ذلك رافعا أحد حاجبيه، ثم نظر إلى أم سيد وقال لها: «هل يوجد أمر آخر تتذكرينه يا أم سيد؟».

توقفت السيدة الخمسينية قليلا وقالت: «لا شيء، لكن ربما أتذكر أنني حين هممت بالرحيل، سمعت السيدان يتشاجران».

– من السيدان؟

– السيد أنور والسيد محمد، ابنه.

– هل كانا يتشاجران؟

– نعم، كانت مشاجرة، لا أتذكر لِمَ.

– ألم تسمعي عن أي شيء كانا يتحدثان؟

صمتت السيدة العجوز قليلا وابتسمت ثم قالت: «لا يا سيدي، أنا لا أهتم بالشئون الداخلية للبيوت التي أعمل بها. كل ما أتذكره أن صوتهما كان عاليا، كان رديئا للغاية، لكنني لم أهتم بالحديث؛ فأنا لست فضولية كما هو شأن هؤلاء العاملات في المنازل حديثات العهد بالمهنة».

نظر إليها حمدي في صمت ثم شكرها وقال: «ألم يخبرك السيد أنور بأي حديث غريب في ذلك اليوم بعد رحيلنا؟».

ردت عليه قائلة: «في الحقيقة يا سيدي، أنا لم أرَ السيد أنور بعد رحيل الدكتور علاء».

أومأ حمدي برأسه وشكرها، ثم انصرفنا. قال لي بعدها: «حسنا، ماذا ترى؟».

– شيء غريب، هذه المرأة تتحدث عن مشاجرة بين الوالد وابنه،

هل تعتقد أن لذلك علاقة بانتحار أنور؟

- انتحار؟ أنت ما زلت مصرًا يا عزيزي على فكرة الانتحار، وتلك مشكلة كبرى كما ترى، ربما للأمر علاقة بوفاته، أو بمقتله، كما يحلو لي القول، لكنني لا يمكنني أن أفوت الفرصة دون أن أشير إلى خبث هذه المرأة.

- أي خبث؟

- هي ليست فضولية، هأ هأ هل تصدق هذا؟

- وما المدهش في ذلك؟ لا أرى أي خبث؟

- تعبير رديء يا عزيزي، تعبير رديء، هون عليك الأمر. الموضوع يحتاج للتركيز أكثر من ذلك.

***

بعد أن انتهينا من العزاء، صعدنا إلى الأعلى، كان عزاء السيدات مقاما في الطابق الثالث حيث كان يقيم أنور، أخبرني حمدي بأنه يود أن يلتقي السيدة سامية، طليقة المرحوم.

بعد أن صعدنا إلى الشقة، كانت لا تزال هناك بعض النسوة المعزيات، أخبرت إيناس برغبتنا في مقابلة طليقة المرحوم، التي تجاوبت مع ذلك الطلب ووافقت، دخلنا إلى إحدى الغرف بعيدا عن العيون.

كانت سامية كما عهدتها من قبل طلاقها من أنور، متماسكة، تبدو أكثر إيمانا بالحرية من زوجها. في العزاء اكتست تماما بالأسود. ووضعت شالا خفيفا على شعرها فأعطاها نوعا من الوقار والهيبة، الأمر الذي أظنه متعمدا في موقف كهذا.

أخبرناها بتعازينا فشكرتنا على مشاعرنا تلك ثم نظرت إليّ وقالت: «خير؟».

نظرت نحو حمدي ثم غيرت نظري نحوها وعرفت حمدي لها على أنه جار جديد لنا.

حيته بابتسامة باهتة رسمت بألم شديد وقالت: «أهلا بك، كنت أتمنى أن نلتقي في ظروف أفضل».

رد عليها حمدي: «بالتأكيد يا سيدتي».

فجأة قال لها: «في الحقيقة، أنا لديّ أمر ما خطير عليّ أن أطلعك عليه سيدتي».

نظرت السيدة مندهشة له وقالت: «الآن؟».

– نعم، الآن. في الحقيقة، كما قال لك جارنا العزيز، دكتور علاء، إنني أستاذ في القانون الجنائي؛ لذلك لديّ بعض الخبرة، وفي الحقيقة أنا لديّ شكوك كثيرة في أن طليقك لم ينتحر كما قال تقرير الشرطة.

– إذًا كيف مات؟

– مقتولا.

حدقت به لعدة دقائق وقد سال الدمع من عينيها وقالت: «سيدي العزيز، أرجو أن تقدر موقفي، أنت تتحدث عن زوجي السابق والأب لابني الوحيد».

– أنا آسف على ذلك سيدتي، لكن هذه تبدو الحقيقة.

نظرت إليَّ وقالت: «وأنت يا دكتور، هل تتفق مع كلام السيد حمدي؟».

ظللت صامتا.. كنت في حيرة من أمري، ما تقوله الشرطة إنه مات منتحرا، أما حمدي فيردد على مسامعي منذ بداية اليوم أن ذلك الرجل مات. نظرت نحو حمدي، الذي استأنف حديثه وأخبرها عن لقائنا طليقها يوم وفاته وحديثه وأن الرجل لا يمكن أن يكون قد فكر بهذه الطريقة وأن يذهب للانتحار بعد ذلك بساعات.

ثم ختم حديثه قائلاً: «هذا أمر لا يتماشى مع قوانين النفس البشرية».

– وما العمل يا سيد حمدي؟

– سنسعى إلى التوصل للقاتل يا سيدتي، أعدك بذلك.

كانت تنظر إليه وكأنها تتابع رجلا على المسرح، شيء من الانبهار الممزوج بالدهشة والحزن.

قال لها: «أود أن تساعديني سيدتي».

– بالتأكيد، ولكن كيف؟

– قد أحتاجك، أنا أعلم أنك تقطنين في الإسكندرية، هل يمكنك البقاء هنا في الإسماعيلية في الفترة المقبلة؟

أخبرتنا بالنفي، كانت لديها مواعيد عمل بعد يومين، لكنها أعطت لحمدي بطاقة بها أرقام الهاتف الخاصة بها وأخبرته بأن يتصل بها وقتما يشاء.

ختمت لقاءنا بأن أنور كان وسيظل والد ابنها الوحيد والرجل الوحيد في حياتها مهما حدث بينهما.

قبيل خروجنا، نظرت إليها وأخبرتها بتعازيَّ مرة أخرى.. بدت سامية في تلك اللحظة في لباسها الأسود كأنثى العنكبوت الأسود، لا أعرف ما الذي أتى بذلك التشبيه في ذهني، إلا أنه ظهر..

بعد أن خرجنا قال لي حمدي: «تلك السيدة، إنها حقا حزينة، ثكلى، لكنها ليست مصدومة.. أمر غريب».

***

# الفصل السادس

إيناس.. امرأتي العزيزة، لا تهدأ دائما قبل أن تعرف كل شيء حولها، بالتأكيد، لم يغمض لها جفن قبل أن تعرف ما دار في حديثنا مع سامية، لكنني لم أخبرها بالتأكيد عن أمر القتل هذا. كيف لامرأتي الصغيرة تلك أن تتقبل أمرا مرعبا كموضوع القتل هذا؟ حين حاولت أن تستدرجني في الحديث دون فائدة، تارة بالسؤال الجدي، وتارة بالدلال دون أن تحصل مني على إجابة مفيدة، في كل مرة كنت أطبع قبلة على أحد خديها وأضحك وأقول لها: «أنتِ لا تخفى عليكِ خافية، تسألينني أنا عن أمر كهذا؟ كنت أظن أن أحد جدران المنزل قد أخبرك».

لم يهدأ ذلك الكائن الفضولي الذي يحيا بداخلها، يكفيك أن تتأمل تلك النظرة الطفولية، وشعرها المنسدل على كتفيها وهي ترجوني أن تعلم ما أخفيه عنها، حاولت جاهدا أن أتهرب من الأسئلة، قالت لي بدلال: «ومنذ متى ودكتوري العزيز يخفي عني شيئا؟».. اقتربت مني للغاية،

كدت أشعر أنها ستنتزع سري من بين دفتي لساني، قلت لها: «أنت حقا كما أخبرك دائما، طفلة. هوني عليكِ يا عزيزتي، ماذا يفيدك كلام حمدي مع سامية؟».

- ألن تخبرني إذًا؟

- أخبرك بماذا؟

- بما قالا أمامك.

- دعي عنك هذا الفضول أيتها القطة اللعوب، هل تحتاجين لي أنا لتعلمي شيئا ما؟

مارست دلالها المعتاد ووضعت يدها على جبهتي وقالت: «انظروا لهذا الدكتور العظيم، إنه يخفي على إيناس حبيبته، من الآن عاد يخفي عليها أمورا، يا إلهي».

استغللت الفرصة لأطبع على جبينها قبلة أخرى وقلت لها: «لا أخفي عنك شيئا، أنت لا تخفى عنك خافية، لن أُصدم إذا علمت أنك تعلمين لِمَ انتحر أنور».

- انتحر؟ هأ هأ هأ، هل تصدق هذا؟

ثم قامت من مكانها وخرجت من الغرفة، لم يكن حديثها الأخير

هذا مبشرا بأي حال من الأحوال.. ترى ماذا تخفي امرأتي الصغيرة في نفسها؟

***

في تلك الأيام اكتسبتُ عادة جديدة؛ الكتابة.. كنت إذا اختليت بنفسي بدأت في تدوين ما يحدث من الأمور، كنت أحاول أن أنظم تلك الأحداث في رواية.. أليس غريبا أن تبدأ في كتابة رواية ما أنت لا تعلم نهايتها؟!

أتذكر أن اليوم التالي كان يوافق الجمعة، لم ألتقِ حمدي في يومها، إلا أنه مع عصر يوم السبت، وبعد أن عدت من الصيدلية علمت أنه ترك لي رسالة لدى إيناس بأن أذهب إليه وقتما أعود، فضلت أن أتغدى أولا ثم أصعد له.

عند صعودي إليه، بدا واضحا أنه كان مستعدا لقدومي: جلسة في شرفة الشقة وكوبان من الشاي الإنجليزي، عالي الجودة.. سألني إذا كنت أدخن فأخبرته بالنفي، قال لي إنه كذلك، لكنه يحتفظ بعلبة من السيجار لتقديمها لزائريه، خصوصا أن الكثير من معارفه يدخنون السيجار.

أخبرته بنظرتي لتلك الأمور، نظرة رجل صحة بحتة، كم هي قادرة على إصابته بعدد لا بأس به من الأمراض. وقد ظل هو منصتا

لحديثي إلى أن انتهيت.

ثم سألني فجأة: «هل فكرت في ما قالته أم سيد؟».

– بخصوص؟

– الشجار بين السيدين.

– لا، في الحقيقة لم أفعل، يبدو أنك على عكسي.

أجابني بالإيجاب وتساءل أمامي: «ترى ما الأمر الذي جعلهما يتشاجران سويا؟».

ظللنا في صمتنا لعدة دقائق، حتى أخبرته بأمر ما قاله لي محمد يوم وفاة والده برغبته في الخطبة، وأن والده قد يعارض أمرا كهذا، وأنه طلب مني التدخل والحديث مع والده لعلي أقنعه.. ظل حمدي يستمع لي ثم قال: «أمر مثير.. الفتى الشاب لديه دوافع للشجار مع والده، لكن ترى هل يمتلك دوافع لأكثر من ذلك؟».

قلت له: «ماذا تقصد بأكثر من ذلك؟».

– أنت تفهمني، أنا أقصد هل امتلك دافعا لقتل والده؟

– قتل والده؟ هل يعقل ذلك؟

– نعم بالتأكيد يعقل، في زمننا هذا يا عزيزي يعقل أكثر من ذلك.

لقد رأيت بأم عيني شابا في مثل عمره قتل والده لأجل بضعة جنيهات لم تتجاوز المئة.. صدقني أنا لم آتِ هنا للراحة من فراغ.

أخبرته أن محمدا ليس من زمرة هؤلاء الشبان المتهورين الذين يمكن لهم أن يتصوروا أن قتل الوالد هو الحل..

رد عليَّ قائلاً: «بالتأكيد، أنا لست متأكدا من أنه فعل ذلك فعلا، لكن هذا أمر ليس مستبعدا، كما ترى الوالد بدا وكأنه حجر عثرة في تكوين أحد أحلام الفتى. وربما صور له الشيطان أن فعلا ما قد ينهي هذه المشكلة».

لم يكن كلامه صعبا للغاية.. من يقرأ صفحة الحوادث في الجريدة يعلم أن أكثر من ذلك يحدث، لكن كيف لي أن أصدق مثلا أن أمرا كهذا قد يحدث بالقرب مني لهذه الدرجة؟

فجأة رن جرس الهاتف.. استأذن حمدي ليرد عليه، بعد دقائق عاد لي قائلاً: «حسنا، يبدو يا عزيزي أنني لست وحدي، لقد كان معي على الهاتف منذ دقائق، الضابط أكمل المحقق، تلميذي، كما تعلم وقد أخبرته بأنني سأكون سعيدا باطلاعي على أخبار عمله أولا بأول، وها هو فتى يستمع للنصيحة. حسنا، إليك هذا الخبر، لقد تقدم بعض زملاء أنور السياسيين ببلاغ ضد الشيخ حسنين، متهمين إياه بالدعوة لقتله

وربما قتله أيضا، وبأنهم لا يصدقون أن شخصا كأنور قد انتحر».

– جريمة سياسية؟

– لا أشتم بها رائحة الجريمة السياسية يا عزيزي، لكن ما أنا متأكد منه الآن أن الأمر قد بدأ الآن وأن تحقيقا طويلا سيجري.

نظر إلى الشارع من الشرفة وقال: «لقد طلبت من أكمل أن أحضر التحقيق، وقد تحفظ على ذلك في البداية، إلا أنه سرعان ما أُحرج من رفض طلب كهذا لأستاذه. ما رأيك؟ هل تود أن تحضر معي؟».

كانت تلك دعوة صريحة لمغامرة لم أتوقعها، مثل هذه الأمور لا تأتي في الحياة إلا مرة واحدة، لهذا لم يكن من الممكن أبدا أن أرفض أمرا كهذا؛ لذا فقد أخبرته بأنني أود أن أحضر معه.

***

صباح الأحد، الموعد المعتاد للصحيفة المحلية الأسبوعية، التي لم تكن لتخيب ظني في نشر خبر وفاة أنور في صدر صفحتها الأولى، ما أدهشني أنهم لم يجدوا أي ضير بنشر تصريحات الشيخ حسنين في نفس الصفحة واتهامه لأنور بخيانة الدين وحديث البعض أن الشيخ حسنين قد أهدر دمه، تصريحات أخرى تهاجم الشيخ حسنين من شيخ أزهري آخر، ألا يدرك هؤلاء بين ترتيبهم هذا أنهم يوجهون الرأي العام نحو رأي

معين في أمر يتعلق بتحقيقات تجريها الشرطة؟

كعادة يومي الشحيح بالأحداث، ذهبت إلى الصيدلية قرب الظهيرة، فوجئت بحمدي يتصل بي ويطلب لقائي، أخبرني أن التحقيق سيبدأ غدا، لكن علينا أن نزور الشيخ حسنين اليوم زيارة سرية، قال لي أن أكون جاهزا قرب المغرب لكي نذهب إلى هناك سويا.

قرب غروب الشمس ذهبنا إلى المسجد، حيث يؤم الشيخ حسنين المصلين، صلينا المغرب وانتظرنا حتى انتهى من حديثه مع بعض من حوله، اقترب حمدي منه وتحدث إليه سرا فنظر إلينا وقال: «بالتأكيد، يمكننا أن نفعل ذلك في مكتبي، في الحزب».

في حزبه الإسلامي، استقبلنا الشيخ حسنين في مكتبه، مكتب وثير به مكتبة من الكتب أغلبها فقهي، وعلم لمصر وآخر للحزب، قال لنا: «كلي آذان مصغية لحضراتكم».

ابتسم حمدي وقال له: «نشكرك يا مولانا على لقائنا في البداية، نحن هناك لنتحدث معك بخصوص أنور مجدي».

قطب الشيخ عن جبينه وقال: «نسأل الله أن يرحمه وأن يتجاوز عن سيئاته».

– في الحقيقة، نحن جيران له نسكن في نفس المنزل، وقد كنا معه

في يوم وفاته.

– لقد علمت أنه انتحر، ما أبشعها تلك الميتة.

– في الحقيقة يا شيخنا هناك تحقيق يجرى بخصوص هذا الأمـر، وهناك اعتقاد أنه لم ينتحر.

حدق الشيخ في حمدي للحظات وقال: «ماذا؟».

– نعم، أغلب الظن أنه قُتل.

– ولكن ما نشرته الصحف أنه قد انتحر.

– كلام صحف، كما تعلم.

– سيدي، ما تقوله خطير، معنى أنه قتل أن هناك قاتلا في الأنحاء.

كانت ملحوظة مهمة من جانب الشيخ، ابتسمت لسماعها، كما هو لطيف أن يقول لك أحدهم إن وجود كتابة يشير إلى كاتب.. كنت أود أن أضحك، إلا أنني منعت نفسي من ذلك منعا للإحراج. قال له حمدي: «هذا أمر يبدو حقيقيا يا مولانا».

نظر الشيخ إليَّ قليلا ثم نظر إلى حمدي وقال: «وما المطلوب مني إذًا من هذا اللقاء؟».

– لا شيء، كنا نريد منك أن تستغفر لأنور.

بعد أن نطق حمدي بهذه الجملة، نظرت إليه مستغربا، من يستغفر لمن؟ لم أكن مقتنعا بمولانا حسنين على أنه شيخ من الأساس. نظر الشيخ إلى حمدي قليلا ثم قال: «يا سيدي الفاضل، نحن نطلب من الله أن يغفر للمسلمين جميعا، وإن الله غفور رحيم».

ابتسم حمدي قليلا وقال: «ولكن يا مولانا، هناك البعض من يقول إنك أهدرت دم أنور». صمت حسنين قليلا وبدا وكأن الدماء قد تجمدت في عروقه، ثم قال: «من أخبرك بهذا يا أستاذي؟».

– بعض أتباعك قالوا هذا.

– ليس لي أتباع.

– هؤلاء الذين يستمعون لك.

– أنا لا أنصح إلا بالموعظة الحسنة ولا آمر بقتل أو إيذاء.

– الصحف تتحدث بهذه الأمور يا سيدي الفاضل.

– أنت قلت منذ قليل إن ليس كل ما تنشره الصحف صحيحا.

– ماذا عن كلام بعض تلاميذك بأنك أهدرت دمه؟!

– لا أظن أن أحدا من التلاميذ قد نقل عني ذلك.

صمت قليلا وقال: «يا سيدي، نحن نـدعو إلى الله لا إلى إفساد في الأرض، نحن نختلف مع أنور مجدي في كثير من أفكاره، لكن عصر قتـل هؤلاء المفكرين انتهى، هل تظن أن مقتل أنور مجدي مـثلا سيقـضي علـى كل من هم على شاكلته؟ إن المعركة لن تنتهـي بهـذه الـصورة، ويجـب ألا تدار بهذه العقلية، الأمر تجب إدارته عن طريق كسب النـاس وتـوعيتهم بمخاطر من هم على شاكلة أنور هذا».

قال له حمدي: «أنا أفهم ذلك يا مولانا».

ساد الـصمت قلـيلا في المكـان ثـم قـال لنـا: «هـل كنتمـا معـه يـوم وفاته؟».

أخبرناه بالإيجاب، ثم أخبرته بأنني كنت مع ولده حين اكتـشفنا جثته، طلـب مـني أن يعـرف أكثـر عـن كيـف وجـدناه وأسـئلة مـن هـذا القبيل.. لا أعرف لِمَ اهتم بمعرفة هذه الأمـور، إلا أنـني أجبتـه عـن كـل تساؤلاته.. في النهاية قال لنا بأنه يأسف لحدوث هذا الأمر. أما نحن فقد طلب منه حمدي مرة أخرى أن يدعو لأنور بالمغفرة، وقد وافق على مضض وغمغم بكلمات من قبيل: «الرحمة لأموات المسلمين جميعا».

بعد أن خرجنا من مقـر الحـزب قلـت لحمـدي: «هـل تطلـب مـن حسنين أن يستغفر لأنور؟ لو كان أنور حيا واستمع لهذا... أنـا لا أفهمـك

يا عزيزي».

نظر إليَّ حمدي مبتسما وقال: «هل تؤمن بعلم النفس؟».

– بالتأكيد، لقد درست جزءا منه حين كنت طالبا بالكلية.

– إذًا، وما استنتاجك النفسي لهذه المقابلة؟

نظرت إليه مندهشا وقلت متسائلا: «استنتاج نفسي؟».

ابتسم حمدي وقال: «علم النفس يا عزيزي هو مفتاح لحل كثير من هذه الأمور، عقليتك تختلف عن عقليتي، عن عقلية القاتل، عن عقلية المقتول، أقصد أن الشخص منا إذا ما فعل جريمة مثل القتل فإنه سيتخذ موقفا مدافعا بالتأكيد حتى لا ينكشف، سرعان ما قد يتحول هذا إلى هجوم مرة أخرى.. في أي من هذه المراحل له سمات عدة يمكنك أن تصل إليه منها».

– وهل ساعدك ذلك مع الشيخ حسنين؟

– في الحقيقة قد أتفق معك تماما أن الرجل لا يرقى لأن يكون رجل فقه ودين، لكنه يعمل بحسن نية كامل. في الأغلب هو لديه قدرة على الحديث، شأنه شأن الكثيرين من أمثاله، لكنه لا يمتلك العلم الكافي، قد يكون جاهلا في الأمور الفقهية أكثر مما يعلم، لكنه كان صادقا بأنه يدعو إلى الله بحسن نية، دون إيذاء، أو كما يتصور هو. كلماته عن

الوصول إلى الناس وإقناعهم بضرر تفكير أنور تحمل الكثير من النضج السياسي، هذا الرجل في رأيي بعيد كل البعد عن دم أنور.. هو لم يفكر في الأساس في قتله.

- ماذا عمّا قيل من أنه قد أهدر دمه؟

- كما قال هو، الأمر لا يعدو حديث صحف.. هل لدينا أي من أتباعه اعترف بذلك حقا؟ لا أظن، ولا أظن أن التحقيق سيتوصل إلى قاتل ذلك فعلا، وإن توصل فلا أظن أنه على علاقة بالشيخ حسنين.

- ماذا عن حديثنا على الغداء يوم وفاة أنور؟

- أي حديث؟

- عن هؤلاء الذين يقتلون باسم الدين.

- آه، هذا أمر عام، قد لا ينطبق بالضرورة على الشيخ حسنين، لكنه ينطبق بصفة عامة على أمثاله.

- ومن ثم؟ أنا ما زلت لا أفهم بماذا خرجنا من هذه الزيارة غريبة الشأن.

- خرجنا بأن الشيخ حسنين لم يوصِ بقتل أنور، وبأن تحقيق الغد الموجه نحو ما حدث بأنه جريمة سياسية لن يعدو سوى أن يكون مجرد إضاعة للوقت.

- لكن سنحضره، أليس كذلك؟

نظر إليّ حمدي مبتسما وقال: «أرى أنك قد اندمجت في هذه القضية يا عزيزي، وكأن الأمر يثيرك بصفة شخصية».

- لا تنسَ أن أنور كان صديقي، وجارا لي في الوقت نفسه.

- بالتأكيد، لم أنسَ هذا.

- إذًا، ما الخطوة المقبلة؟

- سنكمل بحثنا ونضيق دائرة الشكوك.

- وكيف لنا أن نفعل ذلك؟ بعلم النفس؟

رفع حمدي أحد حاجبيه وقال لي: «هأ هأ، أنت تهزأ بنظريتي إذًا».

ابتسمت له وقلت: «لا، العفو، لكنني حقا أسأل».

- نعم، سنكمل العمل بنظريات علم النفس. كما أخبرتك أن قاتلنا العزيز الآن يقف في مرحلة الدفاع أملا في الهروب، لكننا ما إن نقترب منه فسيبدأ في اتخاذ وضعية هجوم جديدة.

- تقصد أنه...؟

- نعم يا عزيزي، هو العقل البشري لا يتغير، علينا أن ندركه

قبل أن يبحث عن ضحية جديدة تحيط به.

نظرت إلى حمدي مندهشا من تفكيره واستنتاجاته، لم يكن في بالي أبدا أن القاتل قد يفعل ذلك، ناهيك عن أنني كنت ما زلت حتى ذلك الوقت غير مستعد للاقتناع بموضوع جريمة قتل.

# الفصل السابع

في ساعة متأخرة من ذلك اليوم، عدت إلى أوراقي لأسجل ما حدث في أمر تلك القضية، قمت بالبحث على الشبكة الإلكترونية بخصوص تلك الأحاديث عن علم النفس، ما أدهشني هو ما قرأته تأكيدا لكلام حمدي، الإنسان بعقله البشري يؤمن بتأنيب ضميره أولا بأول، في داخلنا إيمان عميق بالقدر، حتى إن كنا غير مؤمنين بوجود إله.

إيماننا بأنفسنا أننا لسنا حكاما لهذا الكون، بل لدينا إيمان داخلي بأننا كائنات ضعيفة، نتعرض للثواب والعقاب، ونؤمن بأننا قد فعلنا كذا بصورة خاطئة ولا تصح؛ لذا نشعر بالذنب والرغبة في التوبة، والهروب من نتائج أخطائنا.

لكننا مع الوقت نفقد ذلك الإيمان مع الخطأ، نبدأ في الظن أن عدم العقاب، ولو بصورة مؤقتة، يعني أننا نجحنا؛ لذا قد لا نجد غضاضة في تكرار الخطأ مرة تلو الأخرى إذا استلزم الأمر، ما يهم تفكيرنا البشري

هو أن نهرب دائما من أخطائنا التي ارتكبناها.

كان حمدي محقا في ذلك، الهروب من الخطأ، قد يتفوق أحيانا على فكرة التوبة عن الخطأ، نحن لا نتحمل أن نعاقب، وبالتالي فإذا صح تحليله للأمور، الذي يبدو صحيحا حتى الآن، فإن صاحبنا قد يحاول أن يضرب مرة أخرى في سبيل إنقاذ رقبته من عقدة القصاص.

ترى من يكون القادم؟ بدأت أفكر وأخطط بتلك الكلمات على الأوراق، حتى دخلت عليَّ إيناس، نظرت إليَّ مستغربة وقالت: «ماذا تفعل في هذه الساعة المتأخرة؟».

– لا شيء، أكتب بعض الأوراق.

– ألن تنام يا حبيبي؟

– سأفعل بالتأكيد.

ابتسمت وقالت: يبدو أن لقاءاتك مع جارنا الجديد ستأخذك مني.

ضحكت لها وقلت: «وهل من شيء يقدر على أن يأخذني منك أيتها القطة الطيبة؟».

طبعت قبلة على جبيني وانصرفت، بينما ظللت أنا أتأملها وهي خارجة من الغرفة، ملاك حياتي تلك التي لا تهدأ إلا بعد أن تعلم كل

شيء.. تعلم كل شيء وأي شيء.. هذه ليست ميزة أحيانا.

فكرت قليلا، ماذا لو كانت إيناس تعلم ما يجب ألا تعلمه.

ماذا لو كانت تعلم ما كان القاتل حقا يود أن يخبئه؟!

ظللت سارحا أفكر في تلك الأفكار الشيطانية وتملكني الخوف لساعات طوال.

***

في صباح اليوم التالي بدأ التحقيق، كانت تلك المرة الأولى التي أحضر بها أمرا كهذا، نظر إليَّ المحقق أكمل مستغربا ثم نظر ناحية حمدي، الذي ابتسم له وهمس بما معناه أنني معه، لا داعي لذكر تلك الديباجة التي تحدث في كل الأفلام، بفتح التحقيق في الساعة الفلانية، هذا ما حدث فعلا دون تغيير.

طُلب التحقيق مع أم سيد، لم تغير أقوالها عمَّا قالته لنا يوم العزاء، أخبرت المحقق بأمر المشاجرة بين أنور وولده. بدا ذلك أمرا يستحق الاهتمام، لكن كيف لفتى في العشرين من عمره أن يقتل والده، وراعيه الوحيد؟ أمر لا يمكن أن يرد على عقل واعٍ.

لكن ما كان مدهشا هو سؤال المحقق لمحمد عن أين كان في ذلك الوقت، وقد نفى أن يكون قد عاد للمنزل منذ خروجه في الخامسة

والنصف.. كان ذلك غريبا؛ فشهادة السيدة العجوز تؤكد أن الفتى كان في مشاجرة مع والده قبيل السابعة.

قاطع حمدي التحقيق عدة مرات سائلا الفتى أين كان في الساعة السابعة إلا أنه ارتبك وتلعثم في الكلام عدة مرات ثم قال إنه كان مع أصدقائه، طلب المحقق معرفة أسماء أصدقائه، فقال إنه كان وحده.. ارتباكه الواضح جعل المحقق يشك به.

لاحقا، طلب التحقيق مع الشيخ حسنين، لم يغير الشيخ أقواله عمّا قاله لنا في لقائنا معه في ليلة الأمس. كرر الكلام ذاته بصورة أو بأخرى. لم يفته أن يلقي علينا محاضرة عن أدب الوعظ، امتلأت بدورها بكثير من الأخطاء الفقهية.

في النهاية اكتفى المحقق بالتحفظ على محمد. كان ذلك يعني أنه قد تُوجه له تهمة قتل أبيه، لأن شك المحقق في أمره وتلعثمه في الكلام الواضح كانا كفيلين بالشك بأمره.

بدا حمدي غير متعاطف مع الفتى، أما أنا فإنني تذكرت كيف أنه كان منذ أيام يود لو أن يتقدم لخطبة إحدى الفتيات، اليوم يأمر محقق بالتحفظ عليه وقد يواجَه بتهمة بالقتل، كان ذلك مثيرا للشفقة، كيف لفتى في العشرين أن يمتلك تفكيرا شيطانيا بتلك الصورة؟

ما زالت تلك الكلمات في ذهني لا تنسى: «وعليه، فقد أغلقنا التحقيق في الساعة الرابعة واثنتي عشرة دقيقة، وقد أمرنا بالتحفظ على المدعو محمد أنور مجدي لمدة أربعة أيام على ذمة التحقيق».

***

في المساء أخبرتني إيناس أن ندعو حمدي لتناول الغداء معنا غدا، كان ذلك يعني أن إيناس ما زال في جعبتها المزيد من الرغبة لمعرفة الكثير حول الرجل، عادة شيرلوك هولمز التي تمتلكها، لا تهدأ أبدا. لم أجد في ذلك أي ضير؛ لذا فقد اتصلت به وأخبرته ودعوته لأن يمضي معي اليوم؛ إذا أحب ذلك، وأن يأتي معي إلى الصيدلية في الصباح لنتحدث إذا أراد، وقد قابل دعوتي بالموافقة.

بعد أن اتصلت به، أتت إيناس إليّ وهي تقول: أين كنت اليوم في الظهيرة يا فتى الأحلام؟

أخبرتها بأمر التحقيق وما حدث بخصوص أم سيد والشيخ حسنين وما قيل لمحمد وتحفظ المحقق عليه، كانت تبدو مندهشة لما أقول. قالت لي مندهشة: «كيف لهؤلاء أن يظنوا أن الفتى قد قتل والده؟ هذا هراء».

أخبرتها بأمر محمد وبرغبته في الخطبة وما قاله لي يوم وفاة

والده، رفعت أحد حاجبيها وظهرت تلك الالتماعة المعروفة في عينيها وهمست قائلة: «شيرين؟» ثم خرجت من الغرفة. تبا لفتاتي اللعوب تلك التي تلقي بكلام ومشاعر غير مفهومة في الغرفة ثم تتركني لأوهامي.

من شيرين هذه التي تتحدث عنها؟

في اليوم التالي، أتى حمدي معي إلى الصيدلية، في طريقنا تحدثنا عن قضيتنا قليلا - كنا قد اعتبرنا الأمر قضية في ذلك الوقت - إلا أننا بعد دخولنا إلى الصيدلية، طلبت من حمدي عدم الحديث عن الموضوع أمام إلهام..

عند تفقدي للصيدلية كما هو معتاد، وجدت إلهام تقول لي: «لقد وجدت عدة أمبولات نالوفين يا دكتور، كانت موضوعة خارج صندوق الجدول».

قلت لها: «ومن فعل ذلك؟».

- كنت أظن أنه أنت، أنت آخر من تغادر الصيدلية في المساء، أليس كذلك؟

غمغمت بعدة كلمات تحمل ضيقي، كيف لبعض الأمبولات المخدرة أن تكون في غير مكانها؟ أمر كهذا إذا تكرر قد يعرض صيدليتي الصغيرة لأمور لا تُحمد عقباها.

كان حمدي – على ما بدا لي – غير مهتم بالحديث الغاضب الدائر بيني وبين إلهام، كان مهتما بقراءة إحدى الصحف الخاصة، قال لي في ذلك الوقت: «علاء. هلا أتيت هنا لدقيقة؟».

كانت الصحيفة تتحدث عمًا حدث لأنور، وأن أمرا كذلك قد يسمح بالعودة إلى الظلمات وأن القتل باسم الدين قد يعود مرة أخرى.

قال لي: «ماذا ترى؟».

قلت له: «هؤلاء الأوغاد يقودون التحقيق بإثارة الرأي العام بما لا يليق، كيف لشخص مثل هذا المحرر أن يكتب أمرا كذلك؟ ما أدراه أن أمرا كذلك هو قتل باسم الدين؟».

– يبدو أن ما حدث بالتحقيق لم يصل إليهم بعد.

قلت له مقاطعا: «وهل يكون ذلك عذرا؟ هل تظن أن ذلك يمنح له الحق باتهام أشخاص دون معرفة؟».

ابتسم لي وقال: «بالتأكيد، هذا لا يعطيه أي حق، لكن أنا أفترض حسن النية كما تعلم».

في وجود إلهام لم نتمكن من الحديث بصورة مريحة، إلا أنه سرعان ما مضى الوقت.

في الثالثة والنصف عدنا إلى المنزل، كانت إيناس قد أعدت

الغداء.. حيَّت حمدي عند قدومنا.. قالت له إنهـا أعـدت لنـا صـينية مـن الكوسة لأنها علمت أن حمدي يفضل الكوسة. نظرت إليها مندهشا، بينما ظهرت نظرات الاستغراب الواضحة علـى حمـدي، قـال لـي: «يـا دكتـور علاء، أنت محظوظ بزوجتك، إنها قادرة على معرفة ما أحب مـن الطعـام من لقائنا الأول». ثم نظر إليها وقال: «يشرفني لقاؤك سيدتي».

بعد أن جلسنا على المائدة، قالت لي: «قل لي يا عزيزي، مـا هـذا الهاتف الصيني؟ هل اشتريت هاتفا جديدا يا عزيزي؟».

أخبرتـها بأنني اشتريته منذ عدة أيام لأجل العمـل؛ لأنـني مللـت من اتصال البعض على هاتفي الخاص في أيام الراحة، قالـت لـي مداعبـة: «وهل كنت تنوي ألا تخبرني؟».

ضحكت لها وقلت: «اعذريني يا عزيزتي، لقد نسيت أن أخبرك، إنه هاتف رديء غير مكلف، كلفني مئة جنيه فقط».

قالت وهي تـضحك: «احكـم بيننـا أنـت يـا سـيد حمـدي، إذا مـا وجدت أنا هاتفا جديدا له فجأة دون علمي، ما الذي يـضمن لـي أن هنـاك إحدى الفتيات اللعوب لا تحاول أن تسرق مني عصفوري هذا؟».

ضحك حمدي وقال لي: «يا عزيزي، كيف لك أن تقلق قلب السيدة اللطيفة؟».

قلت لها ضاحكا: «صدقيني يا حبيبتي، كيف لي ألا أخبرك؟ ما كانت لتحل البركة عليه كما تعلمين، لكني حقا نسيت أن أخبرك ليس إلا».

قالت: «هل سمعت يا سيد حمدي، بركتي؟ يحاول أن يضحك على قلبي بكلمة من كلماته المعسولة؟».

قال لها: «يبدو أنه اعتاد على حبك، سيدتي».

نظرت إليّ وقالت: «كيف لي أن أعيش من دونه يا سيدي؟ إنه سندي الوحيد في الدنيا إذا لم تكن تعلم، بعد وفاة والدي، لم يعد لي من يهتم بشأني سواه؛ لذا فليس لديًّ إلا أن أصدقه»، ثم ضحكت وقامت لتحضر أحد أصناف الحلوى.

قال لي: «لديك امرأة ممتازة يا دكتور علاء، كما أن لديها حسا رائعا في إعداد الطعام».

لساعة أو أكثر، ظللنا نتحدث عن أمور كثيرة في الحياة. كانت إيناس كعادتها دائما تقدم لنا أفضل أصناف الحلوى، تحدثنا قليلا عمًّا حدث لأنور، حاولت إيناس أن تستدرج حمدي في كلامه لعلها تخرج منه بأي معلومة كانت، إلا أن جارنا كان يقظا وخصما عنيدا لخواص إيناس الاستكشافية، لم تفلح عصفورتي في الخروج بمعلومات منه، إلا أنها لم تيأس، لم يقطع حديثنا إلا اتصال على هاتف حمدي النقال، علمت لاحقا

أنه كان من سامية، طليقة أنور، كانـت تخـبره بأنهـا لـديها الكـثير مـن العمل وتود الحضور إلى الإسماعيلية، إلا أنها طلبت منه الحضور غـدا إلى الإسكندرية للحديث معه في أمر محمد.. سألني حمدي في ذلك الوقـت إذا ما كنت أرغب في الذهاب معه، وبالتأكيد ما كنت لأرفض أمرا كهذا.

# الفصل الثامن

في صباح اليوم التالي، توجهنا مع حافلة الصباح نحو الإسكندرية، كان حمدي قد حصل من سامية على عنوانها في الإسكندرية وأخبرني ونحن في طريقنا بأنه يعلم عنوان عملها من بطاقة التعارف التي أعطته إياها في يوم العزاء.

كنت أحاول أن أتصور شعورها باللهفة على ولدها الوحيد، الذي تم التحفظ عليه في التحقيق. جال في ذهني في ذلك الوقت كيف لأم لابن وحيد أن تحتفظ برباطة جأش كتلك؟ لو كنت أنا لسافرت عابرا الأقطار لأحضر التحقيق. يمكنني التفكير في أي نوع من الأمهات تلك هي سامية؟ ذلك النوع الذي يمتلك قسوة غريبة لا تعلم من أين تأتي، أو لعلها من ذلك النوع من السيدات التي ما كانت لتترك عملها مهما كانت الظروف.

في الطريق، أخبرت حمدي بأفكاري تلك، وقد ظل يستمع لي بحماسة غريبة، سألته عن عائلته، قائلاً: «أنت رجل في الخمسين من

عمرك، ومع ذلك فإنني لم أرَ لك أي قريب أتى إليك منذ حضرت إلى الإسماعيلية؟».

نظر إليَّ بحزن مشفق، بدا لي أنني قد فتحت خزانة الذكريات لديه، صمت قليلا ثم قال: «كان لديَّ زوجة، وقد توفيت منذ عام، كان لدينا ولدان، وقد توفي أحدهما منذ عامين، أي قبل زوجتي بعام، وقد أثار ذلك الحزن في قلوبنا، أما ولدي الآخر فيعيش في كندا، سافر منذ خمسة أعوام، لم أره فيها إلا مرة واحدة، أتى في جنازة والدته، وقد طلب مني أن آتي معه إلى كندا، إلا أنني في ذلك الوقت كنت أعمل في الجامعة، فرفضت. لا أحب أن أعيش عالة على أحد يا عزيزي؛ لذلك فقد آثرت البقاء في القاهرة. لعلك لا تتذكر زوجتي، كانت تأتي لي أحيانا عندما كنت أقيم في الإسماعيلية منذ زمن، أظنك كنت طالبا في الكلية في ذلك الوقت البعيد».

كلماته المصحوبة بنبرة من الألم وترقرق الدموع في عينيه، أثارت لديَّ الشفقة من سؤالي.

اعتذرت له من سؤالي، إلا أنه قال إن ذلك لم يكن ليؤذيه إطلاقا.

كيف للإنسان بعد الإنجاب أن يقبل أن يحيا وحيدا؟ ربما لأنني لم أنجب بعدُ فإنني ما زلت أفتقد الكثير من مشاعر الأبوة، أو ربما هي

بداخلي لكنني لم أتمكن من استحضارها، شعورك ونظراتك تجاه الأطفال تبعث بداخلك الروح من جديد.

أتمنى ألا تقع هذه الكلمات لاحقا بيد إيناس، فعلى الرغم من أنني أشعر حقا بالرغبة العارمة في أن أكون أبا في يوم ما، فإنني لا أتصور لي ولدا لا تكون إيناس أمًّا له.

كل ما أتمناه هو أن أتمكن يوما من الأيام من توفير أموال عملياتها الجراحية المطلوبة.

في طريقنا أخبرني حمدي أننا سنصل إلى الإسكندرية قبل ميعادنا بساعتين تقريبا؛ لهذا فإننا سنذهب إلى أي مطعم لتناول الغداء.

في الواحدة، وصلت الحافلة إلى الإسكندرية، شعورك بالقرب من ماء البحر لا يضاهيه شعور.. توجهنا من محطة القطار إلى محطة الرمل، بعد أن تناولنا الغداء قررنا الذهاب إلى حيث تقطن سامية، كانت تسكن في محطة الرمل، شارع صفية زغلول.. ذلك الشارع المكتظ بالبشر، كانت سامية تعمل محاسبة في إحدى الشركات الموجودة في الإسكندرية، عند وصولنا للعنوان، استوقفنا البواب، حمدي أخبره بأننا أتينا للقاء السيدة سامية، فأخبرنا بأنها لم تعد من عملها حتى الآن.

قال له حمدي: هل تتأخر؟ لقد أخبرتنا بأن نلقاها في الساعة

الرابعة.

– لا يا سيدي، قد تأتي في أي لحظة من الآن، منذ وفاة طليقها وهي تأتي مبكرا، يبدو أنكما على موعد مسبق معها، أليس كذلك؟ بالتأكيد، وإلا ما أتيتم إلى هنا، فهي أخبرتني بأنها تنوي الذهاب إلى الإسماعيلية في الأيام المقبلة.

– آه، ستعود إلى هناك ثانية؟

– بالتأكيد يا سيدي، هي لن تترك ولدها في كليته وحيدا، أنت تعلم الشُبان في سنه لا يمكن تركهم وحدهم، تلك السن الخطرة كما تعلم.

كان واضحا على البواب العجوز أنه لا يعلم بأمر التحفظ على محمد، يبدو أن قلائل فقط لديهم معرفة بهذا الأمر، استكمل العجوز الطيب حديثه: السيدة سامية تأمني على نفسها، هي من طلبت مني أن أحجز لها تذكرة القطار يوم الثلاثاء الماضي.

ابتسم له حمدي وقال: السيدة سامية يبدو أنها شخص طيب يا عم... معذرة لم تخبرني باسمك يا عمي.

–. اسمي عبده يا سيدي.

– آه، أهلا بك يا عم عبده.. يبدو أنك حقا مصدر من مصادر ثقة السيدة سامية؛ فهي من طلبت منك أن تحجز لها تذكرة القطار يوم

الأربعاء للذهاب إلى العزاء.

– نعم يا سيدي، هي من طلبت مني أن أفعل ذلك، وقد كان ذلك سهلا؛ فالقطار المتجه إلى الإسماعيلية في يوم الثلاثاء لا يكون مزدحما، كما تخبرني السيدة سامية.

– بالتأكيد، هي تعلم أكثر مني بخصوص ذلك الأمر، لم أتجه للإسماعيلية من الإسكندرية قبل ذلك، أما هي فقد فعلت ذلك عدة مرات.

لم يقطع ذلك الحديث الممل إلا قدوم سامية، التي اندهشت لوصولنا قبلها وطلبت منا الصعود إلى شقتها بالأعلى.

دعتنا سامية إلى غرفة الاستقبال، سألتني عن صحة إيناس، أخبرتها بأنها ترسل إليها التحية، كان واضحا الشعور بالقلق على وجهها، أي نوع من السيدات هي سامية؟

تلك السيدة التي فقدت طليقها، وتبدو الأمور وكأن ولدها سيُتهم في قضية قتل، سيل من الأفكار غير المنقطع يجوب ذهني.

وجهت حديثها لحمدي وقالت: سيدي العزيز، ما علمته أمر لا يبشر بأي خير، لقد تم التحفظ على محمد في التحقيق.. هذا أمر لا يمكن أن أصدقه، لقد طلبت اليوم الحصول على إجازة مفتوحة من العمل، وقد وافقوا أخيرا. لكنني أود أن أفهم الأمور أولا، كيف يمكن أن يُتهم الفتى

بتهمة بشعة كتلك؟

لم أعرف لو كنت في ذلك الوقت محل حمدي ما كنت لأقول، لكنني أدركت أن سيل الأفكار الذي جال في خاطري منذ قليل لم يكن صحيحا، لم تكن سامية بتلك القسوة التي تصورتها، كان واضحا في عينيها الشعور بالقلق واللهفة.

صمت حمدي قليلا وقال لها: لا أريد أن أكون صادما أو مستهزئا بشعورك سيدتي، إلا أن محمد لم توجه له أي تهمة حتى الآن، وهذا يعني أنه يمكنه أن يخرج بريئا من الموضوع دون أي تهمة.

– هل تصدق يا سيد حمدي أن محمدا قد قتل والده؟

– في الحقيقة يا سيدتي، أنا لم أتحدث معه قبل ذلك إلا نادرا، الجميع يريد الحق.

– أنا أعرف ولدي يا سيدي.

– وأنا أدرك ذلك يا سيدتي، لكن الحقيقة ستظهر بالتأكيد.

– سيد حمدي، أنا أعلم أنك كنت محاميا قبل ذلك وأنك كنـ مشهورا وقت عملك في الجامعة، وأود أن تنقذ ولدي الوحيد، من فضلك.

قالت جملتها الأخيرة بصورة درامية تثير الاستعطاف الشديد

بداخلك، اقترابها من حمدي جعلني أشعر بأنها قد تقبل يديه من أجل موافقته على طلبها.

صمت حمدي قليلا وقال لها: «سيدتي، لقد توقفت عن العمل منذ شهر تقريبا، وقد آثرت البقاء في الإسماعيلية من أجل الحصول على القليل من الراحة، لكنني لا يمكنني أن أتحمل أن أرى فتى في العشرين قد يُتهم بجريمة قتل وأظل مكبل اليدين، في الوقت نفسه فإنني أود أن أخبرك بأنني أختلف عن بقية المحامين الموجودين في أرض المحروسة، أنا أسعى للعدل وفقط، دون اهتمام بعلى أي ضفة يقف موكلي».

– إذًا؟

– أنا أعدك بأن أبحث عن الحقيقة، أينما تكون.

– أنا متأكدة من أن الحقيقة يا سيدي العزيز هي أن ولدي الوحيد لم يكن ليرتكب جريمة كتلك، صدقني يا سيدي أنا أعرف ولدي.

– سيدتيَ، لا تلحي من فضلك، أنا أقدر مشاعر الأمومة بداخلك، لكنني كما أخبرتك بإيماني بقضيتي، سأسعى للوصول للعدل أينما كان، هذا وعد، لكنني أتمنى منك أن تساعديني، إذا سمحتِ.

– بالتأكيد، أنا جاهزة لأي شيء.

– أود أن أسألك بضعة أسئلة قد تبدو غير مهمة، لكنها ستفيدني

في الوصول إلى حل لتلك القضية.

- أنا جاهزة لأي سؤال يا سيدي.

- هل من الممكن أن تخبريني بسبب طلاقكما؟

وقع السؤال على أذني سامية كقنبلة، صمتت لدقيقة أو أكثر وهي تحدق بحمدي، شعورها بعدم فهم أهمية السؤال امتد إلى أنه ما الرابط بين طلاقهما وقتل أنور؟

قالت له: «سيدي العزيز، أنا لا أفهمك».

- سيدتي العزيزة، أنت وعدتني بأن تجيبي عن أسئلتي.

- بالتأكيد، لكن ما دخل سؤالك بالوصول للقضية؟

- كيف لي أن أصل للقاتل دون العلم بالقتيل؟

كان ذلك يبدو مقنعا بعض الشيء، على الرغم من عدم اقتناعي التام بالسؤال، بدا لي حمدي كشخص يستغل الموقف للأسئلة الفضولية التي لا طائل منها إلا إرضاء الذات، أو ربما إيمانه الكامل بأهمية علم النفس في أمور كتلك هو ما دفعه لسؤال كهذا.

أعاد سؤاله مرة أخرى وقال مضيفا: «سيدتي، أنا جاد في سؤالي».

ترددت قليلا ثم قالت: «حسنا، في البداية يا سيدي تعرفت على

أنور عن طريق العمل العام، كان بالنسبة لي هو ذلك الفتى الطيب الذي يعمل لمساعدة الآخرين دائما، كان معروفا عنه طيب قلبه وطريقه المستقيم، فعلى الرغم من حاجتنا في البداية للمال فإنه رفض الحصول علي عمل حكومي عُرض عليه في ذلك الوقت بدعوى أن العمل في مصلحة كتلك مليئة بالفساد من شأنه أن يقلل من نزاهته، بعد إنجابنا محمدا، بدأت صفاته في التغير فترة تلو الأخرى».

– أي صفات تقصدين سيدتي؟

– لم يعد ذلك الشخص الطيب الذي اعتدت التعامل معه، أصبح منتهزا للفرص، حتى إن كان ذلك لا يجوز، أنا محاسبة مالية كما تعلم، وقد لاحظت أن هناك تضخما في ثروته بصورة مريبة.

– ولكن، ألم يمتلك مكتبا هندسيا رفيع المستوى كما أعلم؟

– في الحقيقة، كان مكتبا هندسيا عادي الشأن، إلا أن نضوج العمل السياسي لأنور فتح أمامه أبوابا أخرى، صحيح أن العمل عنده ازداد بصورة رائعة، إلا أنني لست مغفلة يا سيدي، أنا أعلم زوجي جيدا وأعلم التفاصيل المالية، كما أن أمور المحاسبة المالية هي تخصصي، ما كان لي لأنخدع بتلك الأوهام أو الأقنعة.

– ألم تواجهي زوجك بذلك؟

– واجهته عدة مرات، وقد كانت نهاية إحدى المواجهات هي الطلاق.

– لكن هناك أمرا يبدو غريبا سيدتي، كان لديكِ شكوك بأن زوجك لديه مصادر غير شرعية من الأموال، إلا أنك قبلتي بأن يعيش ابنك الوحيد معه، أليس ذلك غريبا بعض الشيء؟

– في الحقيقة لم يكن لديَّ أي دليل على أن لديه مصادر غير شرعية من الأموال، لم يكن لديَّ سوى حسي التجاري، وذلك ليس كافيا، كما أنني حاولت بعد ذلك أن أحصل على ولدي ليعيش معي، إلا أن ذلك باء بالفشل لأنني أنا من طلبت الطلاق، كما أن معاملة أنور لي لم تتغير ولم يحاول يوما أن يسيء إليَّ أمام ولدنا، وقد كان حريصا على أن يزورني دون أن أبقيه معي للأبد، كان الأمر مخجلا إذا ما افتعلت مشكلة لوالد ابني الوحيد، دون أي أدلة مقنعة على كلامي.

– يمكنني أن أتفهم كلامك سيدتي.

– قد ترى كلامي غير مقنع يا سيدي، إلا أنني تربيت في بيت محافظ، وقد كان والدي قاضيا ولمثل هذه الأمور حساسية خاصة لديه ولدينا نحن أولاده من بعده.

– هذا واضح، ما فهمته أيضا من كلامك سيدتي أن السيد أنور كان

ذا مشاركة سياسية قديمة، ليست وليدة الثورة.

أومأت برأسها مؤيدة لكلامه وقالت: «صحيح، كان مشاركا في الأمور السياسية منذ زمن».

- ألا تظنين أن أمرا كذلك قد يكون له صلة بوفاته؟

- تقصد أن الأمر قد يكون جريمة سياسية كما تتحدث الصحف عن الأمر؟ هذا أمر وارد. ما علمته من محمد في الفترة الأخيرة أن والده كان كثيرا ما يتشاجر مع هؤلاء الذين كان يسميهم المتأسلمين، في الحقيقة، أنا ليست لي معرفة سياسية واسعة مثله، في الحقيقة أنا أراهم أشخاصا طيبين يعبدون الله ويودون أن ينشروا هذه الأمور بين المجتمع، وهذا ليس عيبا، كان أنور يرى الموضوع وكأنه مؤامرة على المجتمع المسلم أساسا، كما أخبرني قبل ذلك.

- ماذا عن محمد؟

- ماذا به؟

- أم سيد، الخادمة، شهدت بأنه تشاجر مع والده يوم الحادث، وربما في الوقت نفسه الذي حدثت به الجريمة في مكتب الوالد، أما هو فقد أنكر ذلك وقال إنه كان مع أصدقائه، وحين سُئل في التحقيق عن أسماء أصدقائه للتأكد، أنكر ذلك وقال إنه كان وحيدا.

ظلت السيدة صامتة لعدة دقائق وهي تحدق بحمدي وقالت: «يا إلهي».

لم تكن سامية ذلك النوع من السيدات قاسي القلب، بل هو نوع من النساء الذي يمكن وصفه بالأبله، هي بلهاء فعلا، كان ذلك ما ظننته، هي لا تعلم إلا القليل، لا تعلم لِمَ احتُجز ولدها ويبدو أن ظنها أن الأمر كان هينا.

قلت لها: «سيدتي، أنا كنت قريبا من أنور في أيامه الأخيرة، وقد حدثني محمد يوم وفاة والده بأمر أظن أن لديك علما به، كان يود أن يتقدم لخطبة إحدى الفتيات، وقد طلب مني الحديث مع والده في هذا الشأن».

لا أعرف كيف أصف نظراتها وقتها، كانت تشعر وكأنها كانت مغيبة لسنوات ثم صحت فوجدت الدنيا غير تلك الدنيا التي تركتها. حاولت أن تلملم الكلمات المبعثرة على لسانها. شعور بالدهشة واضح في وجهها. قالت: «أخبرني محمد بأمر كهذا، وقد وعدته بالحديث لوالده، لكن بعد نجاحه في الفصل الدراسي الذي بدأ منذ أيام.. يا إلهي، عند تذكري أن ولدي الوحيد لم يذهب لجامعته منذ يومين لأنه سيُتهم في قضية قتل، أود لو أن الدنيا ابتلعتني».

قال لها حمدي: «سيدتي العزيزة، تماسكي قليلا، الحقيقة لا بد لها أن تظهر، وقد وعدتك بأن أسعى خلفها». نظر إليَّ وغمز بإحدى عينيه، في إشارة للاستئذان. ثم نظر إلى السيدة وقال لها: «علينا أن نرحل الآن يا سيدتي، لديَّ بعض الأعمال في الإسكندرية التي عليَّ عملها قبل أن نعود غدا في الصباح».

اتجهنا نحو الباب، كانت السيدة تردد خلفنا كلمات من قبيل: «زيارة طيبة، وأتمنى أن تتكرر في ظروف أفضل»، و«سيد حمدي، من فضلك إنه ولدي الوحيد».

عندما فتحت الباب لأخرج، توقف حمدي فجأة أمام إحدى الصور، كانت تبدو لسامية في سن صغيرة وقال لها: «لا بد أن تلك الصورة لكِ سيدتي»، ثم أضاف مجاملا: «يبدو أن الزمن قد غير أشياء كثيرة إلا أنتِ، سيدتي. تبدين كما أنتِ».

ابتسمت السيدة ابتسامة باهتة، كانت الدموع تملأ عينيها وقالت: «أشكرك، إنها حقا لي، كنت في الجامعة في ذلك الوقت. كنت قد حصلت على جائزة ما لا أتذكر ماذا كانت».

ابتسم لها حمدي ثم حياها وخرجنا، إلى شوارع الإسكندرية.

***

كانت تلك الليلة، التي كان علينا أن نقضيها في الإسكندرية، ليلة مملة بحق. أو ربما شعرت أنا وحدي بذلك.. بعد أن انتهينا من زيارة سامية اتجهنا إلى أحد الفنادق القريبة في محطة الرمل، وقضينا ليلتنا، طلب حمدي مني أن أسمح له بالنوم حتى الغد؛ حيث موعد عودتنا إلى الإسماعيلية، قررنا أن نعود في قطار الفجر.

في تلك الليلة، افتقدت إيناس، كانت معي أوراقي التي أدوِّن فيها تطورات الأحداث. حين حل المساء، بدأت في كتابة ما حدث في الإسكندرية، حتى لا أنساها لاحقا، بعد أن انتهيت، قررت أن أنزل إلى شوارع الإسكندرية. كان الجو في الليل باردا، إنها الأيام الأوائل من شهر أكتوبر. حين اقتربت من البحر شممت نسيمه الهادئ، أمواجه المتلاطمة لا تختلف عن أفكاري بداخل رأسي. تلك الرؤيا يوم وفاة أنور، التحقيق، التحفظ على محمد. ترى هل قتل حقا، أم أنه كان قد مل من حياتنا هذه فقرر أن يتركنا؟ شعورك بأن هناك شيئا ما بداخلك يعرف، لكنك غير قادر على الوصول إليه، شعورك بالرغبة في انتهاء هذه الأمور، شعورك بالبرد أمام البحر، ثم شعوري بالرغبة في النوم ولو لساعتين قبل السفر. أمام البحر، افتقدت إيناس حقا.

***

فجر اليوم التالي توجهنا إلى محطة القطار، حين جلسنا في مقاعدنا، بدأ حمدي في الحديث، قال لي: «ما رأيك في لقائنا مع السيدة سامية بالأمس؟».

أخبرته بشعوري تجاهها منذ البداية، شعوري بقسوتها، ثم ضعفها حين تحدثنا معها، تساؤلاتي حول شخصيتها، شعوري بأنها ليست سوى بلهاء، تخرجها الظروف على هيئة امرأة متماسكة أو قاسية أحيانا.

ابتسم لي وقال: «هي حقا امرأة مثيرة للدراسة، ذات طابع خاص، الحديث معها يثير شعورك بليال شرقية، قد تكون صادقا في كلامك بأن الظروف قد أخرجتها في صورة قاسية، صورة هي ليست عليها في الحقيقة، إلا أنني لا أتفق معك في كلمة الظروف».

– ماذا تقصد؟

– لدينا امرأة رائعة في المسرح، أنت لم تدقق في الصورة التي رأيتها بالأمس، أليس كذلك؟ أنت لم تفعل فعلا، كانت تلك صورة لها تتلقى جائزة على أدائها المسرحي، كان ذلك مكتوبا على الدرع التي كانت تحملها في الصورة، نحن أمام امرأة ذات أداء درامي رائع. وقد نجحت في بعث ذلك الشعور الشرقي في داخلك يا عزيزي.

ظللت أتابعه لثوانٍ غير مدرك لحديثه، كانت تبدو عليه أمارات الفرحة وهو يقول لي كلماته تلك، أخرج من جيبه مذكرة صغيرة بصورة سريعة ثم أشار للتاريخ السابع والعشرين من سبتمبر. ثم قال لي: «أي يوم من الأسبوع؟».

قلت له: «إنه الثلاثاء السابع والعشرون من سبتمبر».

– هل تذكر حديثنا مع البواب؟

– نعم، ما دخل ذلك الحديث بما نقول؟

– لقد حجز للسيدة تذكرة على القطار في يوم الثلاثاء، وعندما حاولت أن أصحح المعلومة منه دون أي إثارة للشك لم يستجب لي عقله الباطن، ألا تعلم لماذا يا عزيزي؟

– لا.

– لأن الرجل لم يكن يكذب من الأساس حتى أصحح له تلك المعلومة.. السيدة كانت على القطار يوم الثلاثاء فعلا. بقليل من البحث يمكنك أن تعلم أن هناك قطارين يتجهان من الإسكندرية إلى الإسماعيلية في اليوم. أحدهما يذهب فجرا، وهو الذي نستقله الآن، وآخر يتحرك في الرابعة عصرا، ما علمته أن السيدة سامية كانت في الإسماعيلية في اليوم نفسه الذي اكتشفت فيه الجثة قبيل المغرب، ألا يعني لك ذلك أي شيء؟

– تقصد أن سامية كانت موجودة في الإسماعيلية من قبل ذلك؟

– بالتأكيد، إذا كانت قد استقلت القطار، فهي، حسب حديث الرجل العجوز، فعلت ذلك في قطار المساء، لو أنها فعلت ذلك يوم الأربعاء، وهو اليوم الذي وصلت فيه إلينا، ما كانت لتصل قبل الساعة العاشرة، لكنها كانت في الإسماعيلية قبل ذلك، يعني ذلك أنها كانت هناك قبل أن تصل إلينا بيوم كامل، ترى لماذا؟

كنت مندهشا لما أسمع، لم أكن لأصدق كلام حمدي بهذه الطريقة. إلا أنه أكمل حديثه وقال: «السيدة استقلت القطار المتجه إلى الإسماعيلية يوم الثلاثاء، أي يوم ارتكاب الجريمة، وصلت إلى الإسماعيلية مساء، ربما في العاشرة وربما قبل ذلك».

– لكن الجريمة وقعت في السابعة..

– وهكذا نظن.. أنت رجل تعمل في المجال الطبي، ولعلك تعلم ما سأقول جيدا: الجثة اكتُشفت في الصباح، ما وجده خبراء المعمل الجنائي جسم مرتخٍ، أي بعد انتهاء تصلب العضلات الذي يحدث بعد الوفاة مباشرة، أي أن الوفاة حدثت قبل اكتشافها بأكثر من 4 ساعات.

– ماذا عن درجة حرارة الجسم؟

– ما علمته من التحقيق أن الجسم عند اكتشافه كان قد وصل إلى

درجة حرارة الغرفة، في صباح أحد أيام شهر سبتمبر، كانت تقريبا درجة حرارة المكان خمسا وعشرين درجة سيليزية، من المعروف أن الجسم تهبط درجة حرارته 2.5 فهرنهايت كل ساعة في الساعات الست الأولى من الوفاة، ثم 1.5 أخرى في الساعات الست التالية حتى تتساوى درجة حرارته مع درجة حرارة الغرفة. أي أن الوفاة حدثت قبل العاشرة، ولأن القتيل آخر رؤية له كانت في السابعة، عندما سمعت أم سيد صوته..

– هل يعني ذلك أنك تتهم سامية بقتل أنور؟

أشار بيديه بمعنى النفي، ثم هز كتفيه وقال: «هذا ليس اتهاما، لكن لدينا سيدة تكذب هنا. بالأحرى هي لم تكذب، هي تخفي بعض الأمور فقط، ليس أكثر من ذلك. هي كانت في الإسماعيلية منذ يوم الوفاة، وهو ما يعطيها القدرة على ارتكاب جريمة كتلك..

– يا إلهي، ما تقوله أشبه بمسرحية حقيقية، وتلك الدموع والخوف والصدمة؟!

– ممثلة مسرحية يا عزيزي، لا تنسَ ذلك. لقد لعبت دورا رائعا في التمثيل، ولن أكون مصدوما إذا علمت أنها علمت، بصورة أو بأخرى، أننا على اطلاع على التحقيق واستعدت لعمل تلك المسرحية الدرامية

لاستعطافنا.

على الرغم من قبولي بحديث حمدي فإنني ظللت طوال ساعات السفر عاجزا عن التفكير، لم أكن أتصور أن ينجح أحدهم في استغفال تفكيري إلى هذه الدرجة.. إذا ما صح حديث حمدي فإن سامية تستحق، بلا شك، جائزة على تمثيلها الرائع في تلك الأيام.

***

# الفصل التاسع

صباح اليوم التالي، وصلتني رسالة على هاتفي النقال من حمدي بأنه سيذهب إلى المحقق ليطلعه على ما وصلنا إليه. ودعاني للذهاب معه إذا أحببت. لا يمكنني أن أخفي اندماجي الشديد مع القضية؛ لذا فقد ذهبت معه إلى التحقيق. وجدنا هناك محمدا خارج غرفة التحقيق، كان واضحا على الفتى الحزن، بدا هزيلا، تظهر عليه قلة النوم.

تحدث معه حمدي قليلا، محاولة طمأنته، حتى تدخل أحد المجندين طالبا منا الدخول للمحقق، الذي استقبلنا بترحاب. وقال لحمدي: «أين كنت يا أستاذنا بالأمس؟ لدينا بعض الأمور التي قد تود أن تطلع عليها».

– لديَّ بعض الأمور أيضا التي أود أن أحدثك عنها.. لكن حسنا، دعنا نرَ ماذا لديك؟

– شاهد جديد تقدم للشهادة بالأمس وقد كان حديثه عن الشيخ

حسنين.. يبدو أنه أحد تلاميذه، أو أحد المقربين له.

– هل يمكننا الاستماع إليه؟

– بالتأكيد، ثم نظر إلى أحد العساكر ليدخل الرجل.

كان رجلا ملتحيا، في أوائل الثلاثينات أو أواخر العشرينات، بدا على قسمات وجهه التردد الواضح مما هو مقبل عليه، كان يحاول أن يختبئ في جلبابه الأبيض، طلب منه المحقق الحضور ومن ثم إخبارنا بما لديه.

كان اسمه كمال، ويعرف بـ«أبو أنس».. أخبرنا بأنه تلميذ للشيخ حسنين وأنه قريب منه لأنه يرى فيه رجلا محافظا على أمور الدين، كما أنه له بحوث وسعى للتعلم من الشيوخ الأفاضل.

قال له حمدي مقاطعا: «عذرا، لكن ما علاقة هذه الأمور بمقتل أنور مجدي؟».

– لقد سمعت الشيخ بأم أذني يقول إن أنور مجدي يحل فيه القتل؛ لأنه أساء الأدب مع الله.

– هل قال ذلك صراحة؟

– نعم، وقال بأن من يفعل ذلك فله الأجر والثواب.

– هل طلب ذلك من شخص بعينه؟

- لا، لم يفعل.

نظر حمدي إلى الرجل وقد بدا عليه عدم التصديق، لا أخفي أن نظرات اللهفة والدهشة في عينيه بعثت بداخلي شعورا بالشماتة، فما فعله بي في الأمس ونحن في طريق العودة لم يكن هينا، ظل حمدي يحدق في الرجل الذي تابع قوله: «كذلك قال لنا الشيخ بأن أنور مجدي شر مستطير، وبأن التخلص منه قبل مرحلة الانتخابات بأي صورة سيكون أمرا ذا مردود إيجابي على الدعوة وتطبيق الشريعة السمحاء».

نظر حمدي إلى المحقق ثم قال لـ«أبو أنس»: «إذا كنت من هؤلاء الذين يعتبرون تلاميذ الشيخ، ما الذي أتى بك إلى هنا؟».

- لأنني أخاف الله يا سيدي.. إننا نخدم الشريعة، لكن قتل النفس من دون حق هو أمر لا يرضاه الله.

- وهل أنت متأكد من أن الشيخ هو من فعل ذلك؟

- لا لست متأكدا، لكنني قدمت إلى هنا للتقدم بشهاداتي التي سأسأل عنها أمام الله.

ظل حمدي يحدق بالرجل لثوانٍ ثم غمغم: «مفهوم».

ثم نظر إلى المحقق وقال له: «أنا ما زلت متمسكا برأيي يا عزيزي، هذه القضية ليست جريمة سياسية، بالتأكيد فإن الشيخ حسنين

هو أكبر المنتفعين من إزاحة شخص كأنور، إلا أن الجرائم السياسية من هذا القبيل لها طرق أخرى، بحكم خبرتي في الموضوع لا أرى أنها تنطبق على حالتنا تلك».

لم أكن قادرا على التفكير من كل تلك الأحداث التي أسمع بها، قال حمدي للمحقق إننا نود أن نتحدث معه على انفراد، أخرج المحقق الشاهد، أخبره حمدي بأمر سفرنا إلى الإسكندرية، وما توصل إليه من أمر سامية.

بدا المحقق مصعوقا مما سمع. تكراره لكلمة: «هل أنت متأكد يا سيدي؟» لا يسمح لك بالشك من دهشته، نظراته المرسومة على وجهه لا تترك أمامك مجالا للشك.

لا أحد يصدق ما سمع.. ترى من كان قائل هذه العبارة؟ هل كانوا الإنجليز حقا؟

بعد أن أخبر حمدي المحقق بأمر ما وصلنا إليه من سفرنا، انصرفنا. في طريق العودة، ظل صامتا، كانت تلك هي ساعة الظهيرة.. الازدحام الخانق لم يترك لي مجالا إلا محاولة استدراج الرجل في الكلام قليلا، قلت له: «فيمَ تفكر يا عزيزي؟».

– في كلام المدعو «أبو أنس» هذا.. هل يمكنك أن تتصور أن ما

حدث هو جريمة سياسية؟ ذلك لا يعدو إلا الكثير من اللغط.

- أليس ممكنا مثلا أن يكون ذلك الرجل المدعو حسنين قد طلب قتله فعلا؟ أنا لا أثق به إطلاقا، لا أراه إلا متملقا، بعيدا كل البعد عن الدين الحق.

- لا أختلف معك في هذا، يا سيدي العزيز، هؤلاء، من أمثال حسنين، في رأيي، قد يكونون مخطئين، بل كثيري الخطأ، لكنني أعلم جيدا أنهم يمتلكون نية سليمة لخدمة الدين.

- جهل؟

- بالتأكيد، ما علمته عن الرجل أنه استقى معرفته من لا شيء إلا بحثه الذاتي، هو ربما يمتلك القدرة على الحديث.

- والإقناع.

صمت حمدي قليلا بعد كلمتي تلك، ثم قال: «نعم، القدرة على الإقناع، لكن إذا صح قولي فهو فعلا يسعى إلى النية السليمة، وقد لا يخدمه جهله بالأمور فقط، لكنه من داخله ليس قاتلا كما تتصور».

- أليس من الممكن أن يكون قد فعل ذلك ومن ثم مارس طريقته تلك لإقناعك؟

– لا، هو لن يستفيد شيئا من محـاولات إقنـاعي في لقائنـا الأول، كان سيفعل ذلك في التحقيق بلا شك، لكنه ما كان ليفعل في لقائنـا الأول.. في ذلك الوقت ما كان ليعلم أنه سيرانا في التحقيـق.. أبـو أنـس هـذا أثـار بداخلي زوبعة من الأفكـار. أشـعر بالـضياع، وكـأن هـؤلاء أرادوا اغتيـال الرجل. من كان أنور مجدي هذا ليمتلك كل هؤلاء تلك الرغبـة الـشيطانية في التخلص منه؟ ترى ماذا كانت أسباب سامية؟

ظل صامتا حتى وصلنا إلى المنزل.. قبل أن ندخل إلى المنزل نظر إلى الشارع وقال: «هل تعرف اسم رجل البقالة هذا؟».

– هل تقصد عم أمين؟

– نعم، اسمه أمين إذًا، أليس كذلك؟ يمتلك رؤية واضحة لمنزلنا، من دخل ومن خرج في أي وقت...

لم يكمل حديثه قبل أن يمـسك بيـدي ويـذهب بنـا إلى هنـاك، ثـم سأل الرجل سؤالا واحدا بعد التحية: «يوم وفاة السيد أنور، هل شاهدت أي شخص غريب يدخل إلى المنزل المقابل لك؟».

بالتأكيد لم يتذكر الرجل أي معلومة.. كـان الإحبـاط واضـحا علـى حمدي.

قال لي: «تلك الضوضاء الموجودة برأسي تشعرني بأنني سأصل إلى الحقيقة، إذا ما تجاهلتها، عليَّ أن أفكر بصورة أعمق من ذلك».

كنا على عتبة المنزل، حين وجدت عادل، جارنا القاطن بالطابق الأول، وهو مدير بهيئة القناة، لم يكن كثير الظهور إلا في ما ندر، لكنه متزوج وله ولدان وبنتان.. ربما لأنه كان قليل الظهور فقد كان الجار الأقل إثارة للتعارف، سلم علينا عادل بحرارة وقال لحمدي: «لا بد أنك السيد حمدي الذي انتقل إلينا قريبا، يا لها من فرصة رائعة أن نلتقي. كان يجب أن نلتقي قبل ذلك، إلا أنني دائم الانشغال في العمل، لكني أعدك بتكرار لقائنا هذا».

لم يبدُ على حمدي الحماسة للقاء جارنا عادل، كان واضحا أن عقله في عالم آخر، كان ذلك أمرا مثيرا للقلق حقا.

***

في مساء ذلك اليوم، لم أذهب للصيدلية، عليَّ أن أعترف أنني أهملتها في الأيام القليلة السابقة، آثرت أن أبقى بجانب إيناس، التي افتقدتها في يوم سفري إلى الإسكندرية.

كانت إيناس دائما ما تحاول أن تستدرجني في الحديث لترضي فضولها، لو كان لدينا ولد الآن لربما كانت انشغلت عن عادتها تلك

بتربية ولدنا هذا.

بعد العشاء، كان عليَّ أن أذهب لأشتري بعض الأشياء التي يحتاجها المنزل.

ما إن وصلت إلى باب المنزل، حتى فوجئت بمن يأتي من خلفي قائلا بصوت خافت: «هس».

أثار ذلك الرعب في قلبي، ما سمعه المرء في اليومين الماضيين لا يمكنه من الراحة أبدا. كانت فتاتان في أواخر العقد الثاني من عمرهما، كنت أعرف إحداهما، كانت تلك ابنة عادل، وفتاة أخرى لا أعرفها.

قالت لي ابنة عادل: «دكتور علاء، نود أن نتحدث قليلا».

- ما المشكلة يا آنسة؟

- أنا أعلم أنك وجارنا الجديد تحضران التحقيق في مقتل السيد أنور.

- ذلك صحيح.

- كنت أود منك أن تساعدني في مقابلة جارنا هذا، لديَّ بعض المعلومات التي أود أن أطلعه عليها.

***

لم يكن ترتيب لقاء سريع للفتاتين مع حمدي أمرا صعبا، باتصال سريع، رحب بالضيفتين الشاباتين.. بعد أن قدم لهما عصير الليمون الطازج، الذي يبدو أنه أعده بعد عودتنا من التحقيق، قال: «حسنا، أخبرني صديقي علاء أنكما تودان أن تخبراني بأمر مهم يخص مقتل أنور مجدي، هل هذا صحيح؟».

تحدثت تلك الفتاة ابنة جارنا، لم أكن أتذكر اسمها في ذلك الوقت: «نعم يا سيدي، الأمر يخص ابن السيد أنور، رحمه الله».

– ما أمر محمد؟

– هل صحيح أنه سيُتهم بقتل والده؟

– حتى الآن لا شيء يشير إلى أنه لم يفعل ذلك.

– لكنه لم يفعل يا سيدي، صدقني.

– أصدقك يا فتاتي، لكن كيف تعرفين؟ من أين تأتين بتلك الثقة؟

نظرت الفتاة إلى صديقتها تلك، التي بدورها أومأت برأسها، استنتجت في ذلك الوقت أنها صديقتها، فهي لم تكن أختها بالتأكيد.

قالت الفتاة، بعد أن شجعها بنظرة أبوية من جانبه: «أنا شيرين، ابنة السيد عادل، الذي يقطن بالطابق الأول، في الحقيقة، أنا

ومحمد على علاقة حب».

ما إن قالت جملتها تلك، حتى انفجرت بالبكاء، حاولت صديقتها تلك أن تهدئ من روعها دون فائدة، بدا واضحا وكأنها قد تمكنت أخيرا من البكاء كما يحلو لها، أحضر لها حمدي بعض المناديل وقال لها: «هدئي من روعك عزيزتي، هل يمكنك أن تهدئي من فضلك وتحكي لي؟».

بعد محاولات من قبل صديقتها وحمدي استجابت أخيرا وبدأت في الحديث: «أنا ومحمد كنا متواعدين على الزواج، وقد كان معي يوم وفاة والده أثناء الليل».

ثم نظرت ناحيتي وقالت: «أنت تعلم ذلك يا دكتور علاء».

نظرت إليها مندهشا وقلت: «أنا؟».

– نعم، هل تذكر يوم وفاة والده؟ كنا نحن الموجودين بالأعلى، كنت أظنك استمعت لحديثنا، لكننا اختبأنا عندما شعرنا بك.

نظرت إليها محدقا، كان ذلك صحيحا. قلت لها: «لكن مهلا، أظن أنني سمعت في ذلك الوقت اسم آية».

نظرت شيرين إلى صديقتها وقالت: «آية أعز صديقاتي»، ثم

استكملت حديثها وهي تنظر إلى حمدي: «لقد كـان معنـا، أنـا ومحمـد في علاقة حب منذ فترة، لكنني كنت كثيرا ما أتذمر من أمر حديثنا السري دون علم أهلي. وقد كانت تلك المرة الثانية التي نلتقي فيها سرا في الخارج، نحن زميلان بالجامعة، وكنا نرى بعضنا البعض في الجامعة، لكن قبل ما حدث بيوم، التقينا خارج الجامعة، كنت ضد ذلك، إلا أنني قبلت أن نلتقي شريطة أن تحضر آية معي وقد قبل بهذا».

قال لها حمدي: «لكن لماذا لم يقل محمد هذا الكلام في التحقيق يا فتاتي؟».

– كان يخشى من أن ينفضح أمرنا، كان ذلك سيسبب لي مشاكل مع أهلي.

كنت أستمع لما تحكيه شيرين محاولا ربط الأحداث، الآن يمكنني أن أفهم أين كان الفتى. ظل حمدي يستمع لما تقوله شيرين باهتمام بالغ حتى انتهت.

لم أعلم في ذلك الوقت ما كان يدور في ذهن حمدي، إلا أنه طمأن الفتاة وقال لها إنه لن يهدأ قبل أن يُخرج محمدا من محبسه غدا، وتعهد بأن يبقي ما قالته سرا.

لم أسأل عن كيفية فعل ذلك، إلا أن حمدي بدا واثقا مما يقول،

بعد أن رحلت الفتاتان. قلت له: «هل تخلصنا من أحد المشتبه بهم؟».

ابتسم حمدي وقال: «هل كنت تظن حقا أن محمدا فعل ذلك؟».

لم يعطني فرصة للرد، يبدو أن حمدي لديه أفكار كثيرة في ذهنه يرغب في الاحتفاظ بها.

# الفصل العاشر

صباح اليوم التالي ذهبنا إلى مقر النيابة حيث التحقيق، تحدث حمدي إلى المحقق منفردا لعدة دقائق، بعد حين أطلق المحقق سراح محمد وأخبرنا أنهم قد استدعوا والدته للتحقيق وأنها ستحضر اليوم في المساء.

كم أستطيع منع نفسي من سؤال حمدي عمًّا يدور بذهنه، أخبرني أنه يحاول أن يصفي ذهنه قليلا؛ لأنه يشعر بأن خلف هذا التشويش ستجد الصورة الحقيقية. في طريق عودتنا من النيابة طلب مني أن يذهب إلى أمر خاص يهمه، ثم قال لي إنه طلب من المحقق أن يُحضر سامية اليوم إلى منزله، كان ذلك طلبا غريبا بعض الشيء، إلا أن المحقق استجاب كما أخبرني حمدي. قبل أن يغادر السيارة التفت لي وقال: «أنت بالتأكيد ستحضر تلك الجلسة» أشرت له بالإيجاب، ثم انصرف.

***

في الوقت الفاصل بين ذهابنا للنيابة ولقائي حمدي ذهبت إلى الصيدلية، راجعت بعض الحسابات وذهبت للمنزل بعد ذلك، غداء ساخن مع إيناس، وقيلولة في وقت العصاري، حتى حل المساء.. حين دقت الساعة معلنة الثامنة صعدت إلى شقة حمدي.

استقبلني في غرفة الاستقبال الخاصة به، دقائق حتى حل الضيوف واحدا تلو الآخر، حضر المحقق ومعه سامية، كانت قد تخلت عن قناعها المسرحي الذي ارتدته أمامنا في زيارتنا لها، ثم حضر الشيخ حسنين لاحقا. وفي النهاية أتى محمد، كانت معه شيرين. كانت تبدو أهدأ من لقائنا العاصف بها بالأمس. جلس الجميع في صمت في انتظار أن يبدأ حمدي الحديث، نظر حمدي إلى المحقق وقال له: «عزيزي، أتمنى أن تمتلك صبرا كافيا لتسمع حديثي كاملا» أومأ المحقق برأسه.

سرعان ما بدأت نظرات حمدي في التبدل بين الشيخ وسامية ومحمد وقال: «كل منكم يا سادة أخفى سرا عنّا، هذا ليس أمرا جيدا يمكن فعله في وقت كهذا، حاول بعضكم، بتحفيز من عقله الباطن، أن يهرب من التحقيق من حيث ما رآه هو مناسبا، الشيخ حسنين، على سبيل المثال، كذب علينا.. دعني أخبرك يا مولانا برأيي الشخصي بك، أنا لا أراك ذلك الشخص التقي المتورع، أنت تلتصق بالدين، والدين الحق

منك براء، والدليل على ذلك هو كذبك علينا، بأنك لم تطلب قتل الرجل، ربما قلت ذلك قاصدا أو غير قاصد، لكنك فعلت. حضر إلينا أحد تلاميذك الذين بدءوا في الشك بأمرك، وأخبرنا بالحقيقة كاملة، في الوقت نفسه، أنا لا أشكك في نيتك الحسنة، إلا أنني عليَّ أن أخبرك بالحقيقة كاملة، تطوعك الجاهل سيضر بالدين لا العكس، لقد طلبت من المحقق أن يرسل لحزبك الإسلامي ما أسفرت عنه التحقيقات بشأن كذبتك الشنيعة تلك».

ثم نظر لسامية وقال: «أما أنتِ يا سيدتي، فقد كان لديكِ ما تخفيه، لقد حضرتِ إلى الإسماعيلية يوم الثلاثاء السابع والعشرين من سبتمبر، أي يوم وفاة السيد أنور، بواب البيت العجوز في الإسكندرية أخبرنا أنه حجز لك تذكرة القطار، أي أنك سافرتِ في قطار المساء، ومع ذلك فقد وصلتِ إلى الإسماعيلية في مساء اليوم الذي اكتشفت به الجثة، بالتحديد في الثامنة مساء، ما كنتِ لتفعلي ذلك إلا إذا كنتِ قد ركبتِ القطار في اليوم السابق لوصولك، وبالمناسبة لا داعي للبكاء سيدتي، فقراتك المسرحية لن تنطلي عليَّ هذه المرة، إلا أنني قبل حضورك علمت من المحقق أنه استجوبك وأخبرته أنك أتيتِ لأنور لتتحدثي معه بخصوص أمر خطبة محمد، لكنك وجدتِ زوجك ميتا، ولأنك مثقفة فقد استنتجتِ بأنه توفي بالسم، لم يكن غريبا عليك اللون الوردي الموجود.. في هذا الأمر، قد أصدقكِ

حقا..»، ثم أكمل حديثه ناظرا إلى محمد وشيرين وقال: «أما محمد فقد أخفى عنا أمر لقائه بفتاته، إنني يا أعزائي أقدس الحب، لكنني أود حقا لو أن تتوجا حبكما الصافي هذا بتصرف رسمي دون إثارة للخوف والشبهات. ما قالته شيرين كان صحيحا يا سادة. لقد كان محمد معها في ذلك الوقت، لم يكن في المنزل في السابعة يوم وفاة والده».

نظر المحقق وقال: «أستاذي العزيز، هل من الممكن أن تفهمني ما تقول؟ ماذا عن أم سيد؟ هل كانت تكذب تلك المرأة العجوز؟».

ابتسم حمدي وقال: «لا يا عزيزي، لقد كانت محقة، لكنك لم تفكر بطريقتي.. كانت تلك هي الضوضاء»، ثم استكمل حديثه للضيوف الخمسة وقال لهم: «ما أود منكم أن تعلموه أن كلا منكم أخطأ، لقد كان لكل منكم فائدة شخصية من موت الرجل، حتى أنتِ يا سيدة سامية، لقد علمت، صدفة اليوم، أن أنور كان قد هددك بحرمانك من حسابك المالي، إلا أنك كنت تعلمين حبك له، ولقد راهنتِ على ذلك وربما أصبتِ، لقد تعاملت مع الرجل لمرتين أو ثلاث، ورأيت صورتك الشخصية على مكتبه. ما كان ليقسو عليك بتلك الدرجة. ما أود أن أقوله لهؤلاء الذين أخفوا علينا تلك الحقائق: إنني أتمنى أن يكونوا قد تعلموا ذلك الدرس القاسي»، ثم توجه للمحقق بالحديث: «علينا أن نفكر مرة أخرى يا

عزيزي، يمكن أن تطلق سراح السيدة في الصباح إذا شئت».

كان ذلك الجو المسرحي الذي وفره لنا حمدي يشعرك بأنك لن تصل إلى شيء، شخص واحد على المسرح يتحدث، شخص واحد يحرك تلك الشخصيات.. استأذن المحقق بالانصراف لإكمال عمله المكتبي، سامية، هي الأخرى، كان عليها أن تذهب معه، كانت ستمضي ليلتها في الحجز، إلا أنها كانت تبدو أقل حزنا عن ذي قبل، تعلم أنها بريئة وأن ولدها الوحيد قد ظهرت براءته، انسحبت في طريقتها المسرحية وهي تظهر احترامها لحمدي، الذي ابتسم وغمز لي قائلاً: «كان الأفضل لها أن تكمل في المسرح».

أما الشيخ فقد انصرف حانقا، ربما أدرك الآن أن لعبته التي ظل يلعبها لأشهر قد انتهت على يد حمدي الأمير، لم ينبس ببنت شفة وغادر المكان..

في النهاية قبل رحيلهما ابتسم الشابان، قال حمدي لمحمد: «عزيزي، فتاتك قدرت خوفك عليها في سبيل نجاتها من المشاكل مع أهلها، أما أنت فعليك أن تسعى لاتخاذ خطوة لإنقاذ حبكما الطاهر»، أسلوبه الأبوي وكلماته الطيبة رسمت الابتسامة على وجهيهما.

– لقد تحدثت إلى السيد عادل، والد شيرين، وقد استقبلني الرجل

استقبالا حسنا، لكن علينا الانتظار حتى مرور الأربعين لوالدي، أنت تعلم يا سيد حمدي..

أومأ حمدي برأسه وقال: «وفقكما الله».

بعد أن ذهب الجميع، نظرت إلى حمدي وقلت: «هل من الممكن أن أفهم ما حدث اليوم؟».

ضحك لي وقال بلهجة مسرحية مبهجة: «الأمر بسيط يا عزيزي، علينا أن نفكر بصورة أكثر منطقية ليس إلا، علينا أن نفكر معا بصوت عالٍ».

– كيف ذلك؟

– دعنا نبدأ من حيث القتيل، السيد أنور، صفاته وطباعه، الجميع يعلم أنه كان حسن السلوك، إلا أن الاعتراضات كانت لتأتي على شخصه من ناحيتين، الأولى: اعتراضاته السياسية والفكرية التي سببت له المشاكل مع هؤلاء الذين يقفون مع الشيخ حسنين على نفس الاتجاه الفكري..

– والثانية؟

– ما أخبرتنا به طليقته: انتهازه للفرص، وتضخم ثروته

المريب، لم يكن الكثيرون يعلمون أمرا شخصيا كهذا، لكنه شخص كزوجته أو طليقته والتي كانت تعمل في مجال المحاسبة المالية، كانت لتشعر بذلك الأمر وبوضوح، كانت السيدة صادقة في حديثها عنه. بالبحث، الرجل كان نظيفا من الناحية التجارية، لا تجارة لأي ممنوع، ذلك دفعني للتفكير في مجال آخر.

– ألا وهو؟

– الابتزاز.. كان يمكن له أن يبتز من حوله، أو من تسوء فرصته ليقع في يده وينكشف أمره أمام شخص كأنور، المستغل للفرص كما وصفته زوجته، من حيث علمنا القتيل، يمكنك أن تصف القاتل.. كان ذلك يعني أنه واحد من ضحاياه، ربما ضحية سابقة له، تحمل ثأرا شخصيا، لكن بملابسات القضية، وطريقة الوفاة، نجد أن ذلك أمر صعب الحدوث؛ فالقتيل مات مسموما، وأغلب الظن أنه مات دون أن يعلم أن قاتله قد دبر له هذا الشرك ذي النهاية الحتمية. إذًا من قتل أنور أتى له في مكتبه وتبادل معه الحديث وربما بصورة أو بأخرى تمكن من مغافلته ودس له السم.

– السم في العسل كما يقولون.

– بالضبط، هذا ما حدث، لكنها كانت في القهوة لا العسل، دعنا ننظر إلى أمر آخر، ملابسات الجريمة التي يبدو بعضها مفقودا.

- مفقود؟

- نعم، مفقود أو غير منطقي، تذكر ما قالته السيدة العجوز أم سيد عن المشاجرة، لنفترض أن ذلك لم يكن حقيقيا، إذًا يمكننا أن نوجه شكوكنا لأم سيد، إلا أن ذلك يحتاج منا للبحث عن هدف تمتلكه السيدة من قتل الرجل.. طلبت من المحقق البحث عن أمر كذلك وتبين لنا أن علاقة السيدة بمخدومها كانت طيبة، ملابسات الجريمة أيضا تذكر لنا ألا شيء سُرق من المنزل، أم سيد كانت بعيدة عن الشك، وقد كان ذلك أمرا حقيقيا، القاتل شخص امتلك خيالا واسعا وقدرة على الجلوس مع القتيل ومن ثم دس السم له، ومن ثم يترك لنا أمرا غريبا من شأن تلك المشاجرة الغريبة، ومن البداية امتلك دافعا ليفعل أمرا كذلك، شخص كان قريبا من الرجل، شخص لديه معرفة كافية بشخصية القتيل، وبما يدور حوله.

صمت قليلا ثم قال: «كان ذلك هو علاء عزت يا عزيزي».

ثم ارتسمت على وجهه تلك الابتسامة.

# الفصل الحادي عشر

لدقائق لا أعلم كم كانت ظللت أنظر إلى حمدي وأنا أضحك ثم قلت: «كانت تلك مزحة سيئة».

أكمل حديثه دون أن تذهب تلك الابتسامة الكريهة على وجهه وقال: «في الواقع لم أكن أمزح مطلقا».

حاولت أن أهدأ قليلا ثم قلت: «هل يمكنك أن تكرر الاسم مرة أخرى؟».

اكتسى صوته بنبرة من ثلج وقال لي: «أنت سمعته جيدا يا علاء، كان ذلك القاتل هو أنت».

- أنا؟ أقتله؟ لِمَ؟

- امتلكت الدافع، هل تذكر أمبولات النالوفين الموجودة في صيدليتك، حبك الكبير لزوجتك، حاجتك للمال كي تجري عملياتها

الجراحية؟ كانت تجارة المنوعات بالنسبة لك أمرا مربحا في الواقع، بقليل من التزوير يمكن لك أن تجَعل الأمر قانونيا وبالأسعار التي تراها أنت، تجارة تجعل منك شديد الثراء، إلا أنني لا يمكنني أن أنكر أنك لم تكن لتفكر في ذلك، كنت تود أن تأتي بالمال اللازم للعمليات الجراحية، لسوء الحظ، جارك الانتهازي علم بالأمر بطريقة أو بأخرى وقد هددك بكشف الأمر، كان ساذجا بعض الشيء، وربما لأن من فعل ذلك قبلا معه لم يكن مؤذيا بتلك الطريقة، هل تذكر حديثنا عن علم النفس، بأن الإنسان إذا ما أخطأ ولم يعاقَب فإن نفسه قد تسول له الخطأ مرة أخرى؟ في الحقيقة يمكن تطبيق هذه القاعدة، لكن بالتأكيد كانت ستكون أكثر انطباقا على أنور، كانت جريمة بدم بارد.

ظللت أتابع حديثه باهتمام، لم يكن هناك رجاء من إنكار أمر كذلك، لقد انكشفت اللعبة أمامه بلا شك، قلت له: «كان يستحق ذلك، ما قلته كان صحيحا تماما، حاول أن يبتزني من أجل الحصول على المال، وربما مشاركتي في تلك التجارة، لم أكن أود أن أفعل ذلك الأمر ثانية بعد عمل العمليات الجراحية، كما أنني احتجت الكثير من الوقت لتوفير تلك الأموال لزوجتي، كان شريرا حقا، أخبرني بأنه لا يمتلك وقتا للمفاوضات وهددني بأن ينكشف أمري».

– ولهذا اخترت قتله.

– كانت تلك هي الطريقة الأنسب أمامي حين فكرت في الأمر، لا أنكر أن الأمور تطورت، لقد ظهرت أنت في وقت لم أكن أتوقع أن أرى أي شخص معنا على الغداء. ما علمته من محمد حاولت أن أطوعه قدر الإمكان.

– وحاولت التأثير عليّ، لست مندهشا من أنك تركت عملك من أجل البقاء معي في البحث عن القاتل، كنت تهدف بصورة أو بأخرى أن تغير أنظاري عن الأمور، خدعتك الرائعة التي لجأت إليها، المشاجرة بين الرجل وولده، ذلك كله كان أمرا جيدا بالمناسبة، لكنه ما كان لينطلي على حمدي الأمير، كنت تعلم أن الخادمة تأتي للرجل في ذلك اليوم من الأسبوع وربما تابعت أفعال ولده، متى يخرج ومتى يعود، ثم أتيت بهاتفك الصيني رديء الصنع وسجلت عليه مشاجرة سابقة للوالد، ملحوظة واحدة قالتها المرأة أثارت استغرابي: الصوت الرديء للمشاجرة، ثم إحضارك للهاتف الصيني، الذي اكتشفته زوجتك بالصدفة، لم تكن تحتاج إليه، وربما كنت ستتخلص منه، لكنها اكتشفته، والصدفة أيضا هي التي قادت لأن أعرف بالأمر، ما حدث يا سيدي كان ضربا من الخيال، فقد خدمتك الظروف في أحيان كثيرة وكادت تبعد عنك الشبهات، إلا أن الظروف أيضا وحظك السيئ أعادت القضية لطريقها

الصحيح، كنت تعلم أيضا أن أنور بطيء في شرب قهوته؛ لهذا شربت قهوتك أنت ورحلت، ودسست السم له قبل أن تذهب.

لم أكن قادرا على الحديث، الدهشة وفقط الدهشة، كان ما قاله حمدي وصفا حقيقيا للأمر. صفقت له وقلت: «أنت رائع».

- دع عنك هذه الأمور، لن تكون ممثلا مسرحيا كما كانت السيدة.

- وما المطلوب إذًا؟

- حسنا، كما علمت أنت سابقا، أنا أومن بقيم أكبر من أي شيء، العدالة وتنفيذها. هذه أمور لا نقاش فيها بالنسبة لي، أنت تعلم جريمة كالقتل كيف لها أن تحل العدالة فيها؟

- بالتأكيد، مفهوم.

- كما أود أن أخبرك أنه ليس هناك داعٍ للمراوغة.. ما حدث سُجل في أوراق ستصل إلى المحقق غدا صباحا، يمكننا أن نحل الموضوع وديا.

- وكيف لنا أن نفعل ذلك؟

- بيدك، أنا أعلم حبك العميق لزوجتك، وبالتأكيد أنت لن ترضى لها أن يُتهم زوجها في قضية قتل، يمكنني أن أقنع المحقق بإغلاق القضية

وتقييدها ضد مجهول، لكن هذا لا يعني أنني لا أقبل بعدم تحقيق العدالة.

– نعم، من سيحققها إذًا؟

– كما أخبرتك يا عزيزي، بيدك، لا مجال للمراوغات الآن.

كان حمدي الأمير في تلك اللحظات هو الشخص الذي أكن له كل الكره الذي يمكن أن يجتمع في قلبي، لا مجال للمراوغات كما قال إذًا، تمنيت له مساء سعيدا وانصرفت، بينما ظل هو يتابعني بأنظاره خارجا متجها للأسفل نحو منزلي.

# الفصل الأخير

دقائق قليلة مرت بعد إشراق الشمس، لم أنم في ليلتي هذه، ظللت أكتب ما تبقى لي من الأحداث، ها قد انتهيت، لم أكن مرتاحا للأمر منذ البداية، لم أكن أفضل أمرا كالقتل، لكن هذا اللعين المدعو أنور لم يترك لي مجالا آخر، إيناس محبوبتي التي أخاف عليها من أي شيء ومن كل شيء.

لم يهدأ هذا اللعين حتى أخبرته بأنني سأشاركه في تلك التجارة اللعين، أشعر الآن وكأنني شيطان مريد، سعى للفساد منذ البداية، أنا من أخطأ، كنت محقا في البداية حين بدأت في تدوين ما يحدث في هذه القضية، لم أكن أتوقع أبدا أن تكون تلك نهايتها، فقد حصنت نفسي جيدا، إلا أن حمدي الأمير لم يكن بتلك البلاهة التي توسمتها في غيره من البشر، كتبت تلك الرواية لتشهد على ما حدث، فهي أمور تستحق التدوين.

لم أكذب فيها، حين دسست السم في فنجان القهوة الخاص بأنور كتبت جملا من تلك التي قد لا تعني أي شيء لقارئها: «وتأكدت أن كل شيء على ما يرام ثم هممت بالانصراف»، وحين أتيت في الصباح لكي أحصل على هاتفي الصيني الرديء، كما وصفه حمدي، الذي كنت قد دسسته في أحد أدراج المكتب ليذيع ذلك التسجيل الذي حصلت عليه،

كتبت جملة أخرى من هذا القبيل «فتحته بنوع من الفضول ثم أغلقته مرة أخرى».. ما رأيته في رؤياي كان حقيقيا، لم تكن تلك الجريمة جريمة قتل بدم بارد، فقد أنَّبني ضميري كثيرا بعد ذلك الأمر، لكنني سأتلقى الجزاء الذي أستحق.

حمدي كان منصفا، أراد تحقيق العدالة وقد وعدته بفعلها بيديَّ، ما يدمي قلبي حقا هو إيناس التي سأتركها وحيدة، لقد تركت لها الأموال حتى تتمكن من عمل عملياتها الجراحية اللازمة. أتمنى لها السعادة، أما روايتي تلك فسأضعها في ظرف كبير وأخبئها في درج سري في غرفة مكتبي، كنت محقا حين طلبت من المهندس أن يضيف لي درجا من هذا القبيل في مكتبي.

دقائق قليلة وستصحو إيناس، سأفطر معها اليوم ولآخر مرة وأودعها حين تذهب لعملها، ومن ثم سأنهي هذه القضية، لقد وعدني حمدي بألا يؤذي إيناس بأمر تلك القضية، وأظن أنه رجل شهم، تبا له. لماذا أتى ليحصل على راحته اللعين في هذه البقعة الضيقة من العالم؟ حسنا سرنجة مملوءة بالهواء ستنهي الأمر. عليَّ أن أتعظ ممًا حدث في المرة الماضية، فالسيانيد لم ينصفني.. لا داعي لأي أثر.

حسنا، دقات المنبه، عليّ أن أنتهي مما أكتب وأخبئها قبل أن تفيق إيناس. ليذهب كل حي إلى نهايته المحتومة.

## للتواصل مع الكاتب:

على الفيس بوك:

https://www.facebook.com/AhmedWael91

المدونة:

http://shywtsh5abeet.blogspot.com/

الميل الشخصي:

dr.ahmedwael@yahoo.com



الحقيقة الكاملة

لم يعد الأمر مجرد فضول..امضيت فترة العصر كلها مستلقياً على الفراش رغم كل الأعمال التي أريد انهائها..لكن أمر رائحة النعناع الغامضة هذا قد تملّك مني تماماً حتى صرت لا أفكر في شيء سواه..تأتيني خيالات عديدة .. اتصور إحدى الجارات التي لا أعرفها حسـ... تقوم بأمر ما سري وتبعث في ... شارعنا الفوضوي تلك الرائحة السا... اتقلّب علي الفراش متصوراً أشكالاً لها .. تارة تبتسم لي وتنادي باسـ... وتحثني على اكتشاف سرها...

تصميم الغلاف/عبد الرحمن الصواف

